فنون الأدب العربي

الفن التعليمي

٣

الحِكَمُ والأمثال

يشترك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها

دار المعارف

الحِكَمُ وَالأُمثال

إهـــــــداء ٢٠٠٨

الدكتور/ بهيج محمود فضل
جمهورية مصر العربية

فنون الأدب العربي

الفن التعليمي

٣

الحكم والأمثال

يشترك في وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

تصدرها

دار المعارف

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر

مقدمة

الشّرق مهد الحكمة والمثَل، وذلك أنه موطن النور، ومُنطلَق العقل والتصور العقلى، يَندفق فيه الصفاء على الأذهان فتتبلْور، وتتدفق فيه الحرارةُ على القلوب والجسوم فتهتزّ الأعصاب اهتزازات تنطلق معها مولّدات العقل دُفَعاً دفعاً فيعصرها اللسان عصراً، ثم يرصها رصًّا، ثمّ يرسلها إرسالاً، وإذا هى عبارات موجزة تكاد تنوء بعبء المعنى الثقيل، تنطوى على نور العقل ونور اليقين، وتحتوى على خبرة العين والأذن واللسان والشعور، وتنبض بالحقيقة الفطرية والحقيقة المكتسبة.

هكذا كان الشرق من أقصاه إلى أدناه، ظئر الحكمة والمثل، وهما فيه قديمان بقدمه، وقد نثرا على أكتاف جباله وفى بطون أوديته، فى منبسط سهوله وعلى أجنحة الرياح فى صحاريه، يحدو بهما الركبان ويتغنى بهما الرعاة، كأنهما كتاب القدر، ومقاييس لمن تبصر واعتبر. وقد حفلت بهما آداب الهند ومصر. وزخرت بهما كتب العبرانيين والسُّريان والعرب، فتطلع الغرب إليهما نهماً، ومد إلى الشرق يداً تجنى الثمار اليانعة، وإذا بحكمة الشرق فى أساس كل حكمة، وإذا بها ذخيرة الإنسانية وطريقها إلى الصواب، وأول مدماكٍ من مداميك الفلسفة الأخلاقية.

والحكمة والمثل من أدل الأمور على عقلية الشعوب وعاداتها، ولهذا بذلنا الجهد الوافر فى إيضاح معالمهما لدى العرب منذ الجاهلية إلى يومنا هذا، وفى إيضاح التطور فيهما، مفصلين ما انطويا عليه من معنى، مبيّنين العلل والنتائج، قائلين كلمتنا فى القيم. وعلى الله أن يكلل السعى بالنجاح، وهو مصدر الحكمة والنور.

حنا الفاخورى

الفصل الأول

الحكمة والمثل

١ – ماهيتهما :

جاء فى كليات أبى البقاء : « الحُكم فى اللغة الصرف والمنْع للإصلاح ، ومنه الحكيم لأنه يمنع نفسه ويصرفها عن هواها . . . والحكمة هى العدل والعِلم والحكم والنبوة ، والقرآن والإنجيل ، ووضع الشىء فى موضعه ، وصواب الأمر وسداده ، وأفعال الله كذلك لأنه يتصرّف بمقتضى الملك فيفعل ما يشاء وافق غرض العباد أم لا ؛ وفى عُرْف العلماء هى استعمال النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الأفعال الفاضلة قدر طاقتها ، وقال بعضهم : الحكمة هى معرفة الحقائق على ما هى عليه بقدر الاستطاعة ، وهى العلم النافع المعبَّر عنه بمعرفة ما لها وما عليها ، المشار إليه بقوله تعالى : «ومن يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتى خيراً كثيراً » ؛ وإفراطُها الجربزة وهى استعمال الفكر فى ما لا ينبغى كالمتشابهات ، وعن وجه لا ينبغى كمخالفة الشرائع . وتفريطها الغباوة التى هى تعطّل القوة الفكرية والوقوف عن اكتساب العِلم ، وهذه الحكمة غير الحكمة التى هى العلم بالأمور التى وجودها من أفعالنا بل هى ملكة تصدر عنها أفعال متوسّطة بين أفعال الجَربزة والبلاهة كما قررنا .« ويُعَلّمهم الكتاب والحكمة » أى السنة ، ذكره قتادة . ووجه المناسبة أن الحكمة تنتظم العلم والعمل كما أن السنة تنتظم القول والفعل ؛ « وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة » يعنى مواعظ القرآن ؛ « ولقد آتينا لقمانَ الحكمة » يعنى الفهم والعلم ؛ « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة » يعنى النبوة ؛ «ادْعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة» يعنى بالقرآن...

يستخلص من ذلك كله أن الحكمة هى الكلام القائم على العلم والموجه إلى الصواب والسداد فى القول والعمل .

وجاء فى الكليات أن « المثَل اسم لنوع من الكلام وهو ما تراضاه العامة والخاصة لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ ، يُستعمل فى السرَّاء والضرَّاء ، وهو أبلغ من الحكمة . . . ويُسمَّى الكلام الدائر فى الناس للتمثيل مثلاً لقصدهم إقامة ذلك مقام غيره . والشرط فى حسن التمثيل هو أن يكون على وفق الممثل له من الجهة التى تعلق بها التمثيل فى العظم والصغر والخسة والشرف ، وفى كلام العرب : أسمَع من قُراد ، وأطيَش من فراشة ، وأعزّ من مُنَّح البعوض ، ونحو ذلك . . . » وقال المبرد : « المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول ، والأصل فيه التشبيه ، فقولهم : مَثَل بين يديه إذا انتصب ، معناه أشبه الصورة المنتصبة ، وفلان أمثَل من فلان أى أشبه بما له الفضل ، والمثال القصاص لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول ، فحقيقة المثَل ما جُعل كالعلم للتشبيه بحال الأول كقول كعب بن زهير :

كانت مواعِيدُ عُرْقوب لها مَثَلًا   وما مواعيدُها إلّا الأباطيلُ

فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد » .

وقال ابن السكّيت : « المثَل لفظ يخالف لفظ المضروب له ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ ، شبهوه بالمثال الذى يُعْمل عليه غيره . » وقال غيرهما : « سُمّيت الحِكَم القائم صدقها فى العقول أمثالاً لانتصاب صوَرها فى العقول مشتقة من المُثول الذى هو الانتصاب . » وقال إبراهيم النظّام : « يجتمع فى المثل أربعة لا تجتمع فى غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة . » وقال ابن المقفع : « إذا جعل الكلام مثلاً

كان أوضح للمنطق ، وآنق للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث . » وقال الميدانى : « المثل ما يمثَّل به الشيء أى يشبه » . وقال أبو هلال العسكرى : « أصل المثل من التماثل بين الشيئين فى الكلام كقولهم : كما تدين تُدان . وهو من قولك : هذا مَثَل الشيء ومِثْله كما تقول شَبَه وشِبه ، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا ، وقد يأتى القائل بما يحسن من الكلام أن يتمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلاً . وضرب المثل جعله يسير فى البلاد ، من قولك : ضرب فى الأرض إذا سار فيها ، ومنه سمى المضارب مضارباً . ويقولون الأمثال تحكى. يعنون بذلك أنها تُضرب على ما جاءت من العرب ولا تغيّر صيغتها فتقول للرجل : الصيف ضَيَّعْتِ اللبن ، بكسر التاء لأنها حكاية . »

يستخلص من كل ذلك أن الحكمة والمثل من جوامع الكلم ، وأن الحكمة تفيد معنى واحداً من نهى أو أمر أو إرشاد ، وأن المثل يفيد معنيين : معنى ظاهراً ومعنى باطناً ، أما الظاهر فهو حدث من أحداث التاريخ أو ما إلى ذلك ، وأما الباطن فمرجعه إلى الحكمة والإرشاد . وهكذا يلتقى المثل والحكمة فى المؤدّى ، وهكذا يجرى الواحد على أقلام بعض الكتاب فى موضع الآخر .

والمثل لفظة ساميّة نجدها فى جميع اللغات الساميّة وتعنى التشبيه والموازنة أو المقارنة . وأكثر ما تنشأ الأمثال فى طور البداءة من الشعوب . وأكثر الشعوب ميلاً إلى هذا النوع من الكلام الشعوب السامية ؛ وأكثر ما يقوم التشبيه فى الأمثال بين الإنسان والحيوان ، ويستخلص من ذلك التشبيه سنة للحياة ، أو طريقة للابتعاد عن منقصة ، أو تحقير لحالة من الأحوال ، أو ترغيب أو ترهيب أو ما إلى ذلك .

وهكذا فالحكمة والمثل فلسفة الحياة الأولى ، ولهما فى تاريخ الفكر أهمية كبرى لا يدركها إلا من تعمق فى درسة نفسية الشعوب ، ودراسة التطور الفكرى عند البشر .

٢ ـ الحكمة والمثل عند العرب :

العرب ، كغيرهم من الشعوب الشرقية عامة والسامية خاصة ، جيل شديد الميل إلى إرسال الحكمة وضرب المثل ، وهما على لسانهم فى كل حال ، يدعمون بهما الأقوال ، ويعللون بهما الأعمال ، فيذرونهما عند كل فرحة وترحة ، ويوردونهما فى جميع أحداثهم ، وما يقصون من اجتماعهم وحياتهم ، حتى لتصبح الأمثال والحكم لديهم من ذخائر الدهر ، ومن سنن الحياة ، ومن أكاليل الشيخوخة ، ومن الأمور المعول عليها فى تنظيم الشئون البيتية والقَبَلية والقومية .

وللحكمة والمثل عند العرب محل واسع فى التقدير . قال ابن عبد ربه فى العقد : « قد مضى قولنا فى العلم والأدب ، وما يتولد منهما وما ينسب إليهما من الحكم النادرة والفطن البارعة ؛ ونحن قائلون ، بعون الله وتوفيقه ، فى الأمثال التى هى وشْيُ الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحَلْىُ المعانى . . . فهى أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسِرْ شيء مسيرها ، ولا عم عمومها ، حتى قيل : أسْيَر من مثل . وقال الشاعر :

ما أنتَ إلَّا مَثَلٌ سائِرُ يعرفُهُ الجاهِلُ والخابِرُ

وقد ضَرَبَ اللهُ ، عزّ وجلّ ، الأمثالَ فى كتابه ، وضربها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فى كلامه ، قال الله ، عز وجل :

« يا أيُّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاْستَمِعُوا لَهُ » . وقال : « وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ » . ومِثْلُ هذا كثير فى آى القرآن .

وجاء فى المناظرة التى جرت بين النعمان بن المنذر وكسرى أنو شروان فى

شأن العرب ما يلي : « قال النعمان: وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها . قال كسرى : بماذا ؟ قال النعمان: بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها وبأسها ، وسخائها وحكمة ألسنتها . . . وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ، ورونق كلامهم ، وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم فى الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس . » ومن ثم ترى أن الحكمة والمثل من موضوعات فخر العرب ، لأنهما دليلا الحصافة والفهم. ولا عجب فى ذلك فإنهما ، كما قلنا سابقاً ، فلسفة الحياة الأولى ، وعصارة خبرة الدهور ، وخلاصة نور العقل ونور اليقين ، بل إنهما عينا النفس العربية ، ومرآة ما يجول فيها ، وطريق الاستقامة إلى المثل العليا .

ولذلك عُنى علماء العرب ، من أدباء ولغويين ومؤرخين ومفكرين ، بجمع تلك الأمثال وتفسيرها ودراستها ، فوضع المفضل الضبى (٧٨٦ م) « كتاب الأمثال » الذى طبع فى الآستانة سنة ١٣٠٠ ﻫ . ووضع أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروى البغدادى (٨٣٧ م) « كتاب الأمثال » الذى طبع منه قسمان الثامن والسابع عشر مع ترجمة لاتينية بعناية الأستاذ برتو غوطا سنة ١٨٣٦ م ، ثم طبع كله فى مجموعة « التحفة البهية والطرفة الشهية » بالآستانة سنة ١٣٠٢ ﻫ . وجمع حمزة الأصفهانى (٩٦٠ م) عدداً كبيراً من الأمثال فى كتاب لا يزال مخطوطاً ومحفوظاً فى مكتبة مونيخ . وكان كتاب الأصفهانى من المصادر الرئيسية التى رجع إليها وأخذ عنها كل من كتب بعده فى هذا الموضوع ، وقد نقل عنه الميدانى قسماً كاملاً جعله فى كتابه «مجمع الأمثال » . ووضع أبو هلال العسكرى (١٠٠٥ م) كتاب « جمهرة الأمثال » الذى حفظ فى عدة مخطوطات ثم طبع فى بمبى سنة ١٣٠٧ ﻫ . ثم على هامش « مجمع الأمثال » للميدانى فى مصر سنة ١٣١٠ ﻫ . ووضع أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميدانى

النيسابوريّ (١١٢٤ م) كتاب « مجمع الأمثال »[١] وهو ستة آلاف مثل ونيّف . طبع فى بون سنة ١٨٣٨ فى ثلاثة أجزاء وجعل تحت كل مثل ترجمة باللاتينية للعلاّمة فريتاغ ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٨٤ هـ . باعتناء محمد الصباغ ومحمد قطة العدوى ، وفى طهران سنة ١٢٩٠ هـ ورتبه الشيخ حسين بن أبى بكر الملقب بالنجمى الكرمانى ؛ وطبع فى مصر بالمطبعة الخيرية سنة ١٣١٠ هـ فى جزءين وبهامشهما كتاب « جمهرة الأمثال » . وقد عد كتاب الميدانى المرجع الأكبر فى هذا الموضوع .

وقد اهتم غير من ذكرنا للأمثال والحكم عدد وافر من الأدباء والعلماء كالماوردىّ (١٠٥٨ م) صاحب « أدب الدنيا والدين » ، والشيخ إبرهيم الأحدب

---

(١) جاء تحت عنوان الكتاب ما يلى : « يشتمل على نيف وستة آلاف مثل ، ورتبه على حروف المعجم فى أوائلها ، وذكر فى كل مثل من اللغة والإعراب ما يفتح الغلق ، ومن القصص والأسباب ما يوضح الغرض ويسيغ الشرق ، وافتتح كل باب بما فى كتاب أبى عبيد أو غيره ، ثم أعقبه بما على أفعل من ذلك الباب ، ثم بأمثال المولدين ، وجعل التاسع والعشرين فى أسماء أيام العرب ، والثلاثين فى نبذ من كلام النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، وبالجملة فهو غاية فى حسن التأليف والوضع وبسط العبارة وكثرة الفوائد » .

قال السيوطى فى « طبقات النحاة » إن الزمخشرى وقف على كتاب « مجمع الأمثال » للميدانى فحسده عليه فزاد فى لفظة « الميدانى » نوناً قبل الميم ، فصار « النميدانى » ومعناه بالفارسية « الذى لا يعرف شيئاً » ، فعمد الميدانى إلى بعض كتب الزمخشرى فجعل الميم نوناً فصار « الزنخشرى » ومعناه « بائع زوجته » . ويروى أن الزمخشرى بعد أن ألف « المستقصى » فى الأمثال وقع له مجمع الأمثال للميدانى » ، فأطال نظره فيه وأعجبه جداً ، ويقال إنه ندم على تأليفه « المستقصى » لكونه دون « مجمع الأمثال » فى حسن التأليف والوضع وبسط العبارة وكثرة الفوائد .

وقد اختصر « مجمع الأمثال » شهاب الدين محمد بن أحمد القضاعى والإمام الفاضل أبو يعقوب يوسف بن طاهر الخوبى من تلاميذ الميدانى ، ونظمه بعض فضلاء الدولة العثمانية ووافق فراغه من نظمه عام تسع وسبعين وألف للهجرة والجنود العثمانية محاصرون قلعة قندية ، من جزيرة إقريطش وأول النظم :

نَحْمَدُ من علّمنا الأمثالا يسوقُها فى قوله تعالى

ظاهرة ظاهرة من نبوهْ زاهرة كجنّة من رَبْوَهْ

(١٨٩٠ م) صاحب « تفصيل اللؤلؤ والمرجان فى فصول الحكم والبيان » ، و « فرائد اللآل فى نظم مجمع الأمثال » .

قال شوقى ضيف فى كتابه « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » : « وقد درج كل من ألفوا فى الأمثال على أن يرتبوها حسب حروفها الأولى على نحو ما ترتب المعاجم ألفاظها ، ولذلك نراهم يوزعونها عادة على تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . ثم بعد هذا التوزيع يفسرونها ويقصون أحياناً حوادثها التى جاءت فيها ، معتمدين على ضروب من الظن والتخمين مما جعل الأستاذ نيكلسون يزعم أن قيمة الأمثال محدودة بالنسبة للعصر الجاهلى . وحقاً ما يزعمه فقد طال العهد بين العصر الجاهلى وبين عصر هؤلاء المفسرين ، وإنه لينبغى أن نثنى على صنيعهم ، ولكن مع شىء من الحذر فى الأخذ بتفسيرهم وقصصهم ، ما دمنا نتهم القصص الجاهلى عامة وما نسب إلى عرب الجاهلية من أخبار وأحداث . »

وهكذا نظر العرب إلى الأمثال والحكم نظر اهتمام كلى ، وهكذا صرفوا فى جمعها وترتيبها وتفسيرها جهوداً لا تقدر . وإن من أجال فيها الفكر يجد أن لكثير منها صلة وثيقة بالبيئة الزمانية والمكانية ، وأن لتلك البيئة أهمية كبرى فى فهمها وتفسيرها . وقد غابت أصول بعض الأمثال التاريخية ، وضاعت من ثم المعالم فى استكشاف فحاويها ، فظلت غامضة يتيه الشراح فى مسالكها فيعمدون إلى التأويل والحدس ويخبطون فى التعليق عليها خبط عشواء [1] .

---

(١) من ذلك قولهم : « بعين ما أرينك » فإن معناه « أسرع » ، وقد علق عليه أبو هلال العسكرى بقوله : « هو من الكلام الذى قد عرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه . » ، ومن ذلك قولهم : « لا يعرف الهر من البر » ؛ فمن الشراح من قال : البر الفأرة . ومن الكوفيين من قال فى التفسير : « لا يعرف من يهر عليه ممن يبره » . ونقل السيوطى عن ابن فارس أنه قيل « الهر : دعاء الغنم . والبر : سوقها . » وقيل : « الهر ولد السنور ، والبر ولد الثعلب . » — هذا ولا عجب أن يشوب الأمثال بعض الغموض وهى وليدة الأحداث والعادات وهى ، فى أحيان كثيرة ، مما نبت نبتاً على الألسنة فى غير تنخيل ولا كثير تحبير .

وللأمثال العربية مصادر مختلفة ، فمنها ما ينتسب إلى البادية ؛ ومنها ما ينتسب إلى مكة والمدينة والحيرة والبصرة والكوفة وواسط وحمص ، ومنها ما هو من أصل نصرانى يتصل بالإنجيل المقدس أو بسائر الكتب الدينية المسيحية ، ومنها ما هو من أصل غريب عن كل ما ذكرنا ، تقلبت به الأيام من أمة إلى أمة ومن شعب إلى شعب فتلقفه العرب وصاغوه بقالب عربى صميم .

وقد انطوت الأمثال على أحداث تاريخية كثيرة منها الهامّ كحرب البسوس ومنها الضَّئيل الذى لا أبَه له . وهكذا كانت سجلاً ضخماً للغث والسّمين من الأحداث والمعانى ، وهكذا كانت على كل حال ذات قيمة تاريخية واجتماعية وفلسفية وأدبية .

الفصل الثانى

الحكمة والمثل فى الجاهلية

نشأ المثل والحكمةُ فى الجاهلية نشوءاً طبيعياً . ومما لا شك فيه أن كثيراً من الأمثال والحكم لم يثبت للجاهليين ، وأن قسما منها لعبت به يد التحريف ، وذلك أن العرب لم يدونوا أدبهم بل اعتمدوا فيه على حافظة الرواة ، ولم يكن حفظ النثر بالأمر اليسر ؛ زد على ذلك أن علماء البصرة والكوفة فى العصور التالية أضافوا إلى الأدب القديم شيئا كثيراً قصد الاستشهاد به على آرائهم فى النحو واللغة . ومهما يكن من أمر فالنَّزْر القليل الذى يمكننا أن ننسبه إلى الجاهلية من الأمثال يطلعنا على عقلية القوم واتجاهات تفكيرهم ونظرتهم إلى الحياة ، كما يوضح لنا أساليب تعبيرهم .

ولم تكن الحكمة الجاهلية من نصيب النثر وحده ، بل تعدَّته إلى الشعر ، فجاءتنا فى دواوين بعض الشعراء رافلة فى ثوب الوزن والقافية ، مغلَّفة بغلاف الأسلوب الشعرىّ ، مدعومة بالتشبيه الجاهلى الحسّىّ ، مرصوصة الجوانب ، حافلة بالصور الجاهلية المادية .

والأمثال الجاهلية متفاوتة من الوجهة الأدبية الفنية ، فبينما ترى بعضها قائماً على التشبيه والاستعارة والتمثيل ، مركباً تركيب صقل وسجع وتحبير ، ترى البعض الآخر عارياً من كل فن وبيان ، خالياً من كل مهارة وجمال . ومردُّ ذلك إلى أن بعضها صادر عن طبقة الشعراء والخطباء وأرباب الفصاحة واللسن ، والبعض الآخر صادر عن الشعب . أما أرباب الفصاحة فقد صقلوا أمثالهم وحبّروها

تحبيراً فقالوا مثلاً : مَقتل الرجل بين فكّيه — فى الجريرة تشترك العشيرة — إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه — دعوا دماً ضيَّعه أهله — جَدَح جُوَين من سويق غيره[1] — إلى غير ذلك مما تتجلى فصاحته لكل ذى عينين . وأما الشعْب فقد أرسل أمثاله إرسالاً من غير ما عناية ولا صقل ولا تحبير ، وقد خالف فيها أحياناً سنن النحو والبيان وأجاز فيها من الحذف والضرورات ما لا يجوز فى سائر الكلام .

وإن من أعمل النظر فى الأمثال الجاهلية وجدها مستقاة من حياة البدوى المادية والمعنوية والقبلية . فهى منحوتة ، قلباً وقالباً ، من رمال الصحراء وجفاف أرضها وسمائها ، من حيوانها ونباتها ، من عادات البدو وتقاليدهم ، من حروبهم وغزواتهم ، من آرائهم فى الشجاعة والجود والشرف والعزة والعصبية القبلية وسائر الأخلاق العربية . فالبدوى ، إن أراد التعبير عن الشهرة ، ذكر يوم حليمة فقال : « ما يوم حليمة بسر »[2] ، وإن أراد التعبير عن الإباء قال : « تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها » . وإن أراد التعبير عن تشتت الشمل ذكر سد مأرب وسيل العرم فقال : « تفرقوا أيادى سبأ »[3] . وإن أراد التعبير عن التجربة والحنكة قال : « إنه لَيَعلم من أين تؤكل الكتف » . وإن أراد التعبير عن المناعة قال : « أمنع من عقاب الجو » . وإن أراد التعبير عن بلوغ الغاية قال : « جاوز الحزام الطُّبْيين[4] » . وإن أراد التعبير عن الجود قال : « أجود من حاتم » . وإن

(١) يقال : جدح السويق إذا لته بالسمن أو بغيره ، وجوين مصغراً اسم رجل ، وهو مثل يضرب لمن يجود بمال غيره .

(٢) حليمة بنت الحارث بن أبى شمر الغسانى حضرت هذا اليوم وانتصر به الغساسنة فضرب المثل لشهرته .

(٣) أى تشتتوا عقب مصيبة أو مكروه ؛ وقد قيل المثل عند ما انفجر سد مأرب المشهور واندفع سيل العرم الذى أغرق وأتلف وكان سبب تفرق قبائل الجنوب فى جميع الأنحاء .

(٤) الطبى : حلمة الضرع من الخيل وغيرها ، وهو مثل يعنى أن الأمر بلغ غايته .

أراد التعبير عن العمل بلا فائدة قال: « إنه ينفخ فى رماد ». وإن أراد التعبير عن السير على غير هدى عمد إلى الناقة العشواء وقال : « إنه يخبط خبط عشواء » . وإن أراد التعبير عن الهرب من شر والوقوع فى غيره قال : « كالمستجير من الرمضاء بالنار » . إلى غير ذلك مما يزجك فى البادية ورمضائها، والإبل وأحزمتها، والسماء وعقبانها ، والجاهلية وأخلاقها وعاداتها .

وإن حاولنا التعمق فى الأمثال والحكم الجاهلية خرجنا بفلسفة بدائية طبيعية مفادها أن الحياة ميدان جلادٍ وكرامة، وأن الحق فيها للقوة ، وأن زينة المرء شرفه. أما الجلاد فواجب اجتماعى قبلى يدعو إليه تنازع البقاء والحفاظ على الحياة ؛ وذلك أن البادية قبائل قبائل ، وأن الأرض جفاف وقسوة ، وأن الحياة معلقة بضرع وزرع ، وماء وكلأ، وأن « العشيرة تشترك فى الجريرة » ، وأنه لا بد من «نصرة الأخ ظالماً أو مظلوماً» ، فلا بد إذن للبدوى من الجلاد لرد غارة أو دفع تعدٍ أو استرجاع مرعى أو ماشية . وأما الكرامة فواجب مقدس لا تطيب الحياة إلا بالقيام به ؛ وتتجلى الكرامة بالصدق(إن كنت كذوباً فكن ذكوراً) ، والحفاظ على العرض، وحفظ الجار وإن جار ، والأخذ بالثأر ، والشجاعة والجود وما إلى ذلك .

وهكذا تبدو لنا الفلسفة الجاهلية فلسفة أخلاقية عملية ، بعيدة عن الماورائيات ؛ فلسفة مادية روحانية ، وروحانيتها مسحة أخلاقية كريمة . وهكذا تبدو لنا تلك الفلسفة أنانية قبلية ، تضطرب فى حيز ضيق ، وتحاول أن تعالج حسن التصرف فى حياة البادية على أحسن طريقة ممكنة للحفاظ على الحياة الذاتية والقبلية ، وللحفاظ على الشرف الذاتى والقبلى، وللحفاظ على الصيت الحسن والحياة الطيبة على ألسنة الناس .

وهكذا نرى أن للأمثال والحكم الجاهلية قيمة تاريخية ، وقيمة اجتماعية أخلاقية . فهى تطلعنا على طبيعة البلاد ، وعلى أحوال العباد ؛ وهى تطلعنا على بعض أيام العرب وعلى طائفة من أحداثهم وعاداتهم ، كما تقفنا على نزعاتهم

وعقلياتهم ونظرهم إلى الحياة . وإننا سنقف قليلا عند زعماء المثل والحكمة فى العهد الجاهلى ، لأن فى دراسة آرائهم دليلاً واضحاً على حقيقة ما قدمنا . ونحن نعنى بأولئك الزعماء أكثم بن صيفىّ ، وزهير بن أبى سُلمى ، ولبيد بن ربيعة ، وطرفة ابن العبد ، وعدى بن زيد .

* أكثم بن صيفى (٦٣٠ م) حكيم العرب وقاضيها ، ومثال الرصانة والتعقل . سار إلى كسرى أنو شروان فى وفد عربى لإظهار فضل العرب وتفوقهم ، وكان الخطيب المفوّه الذى عصر الدهر القديم خبرة وحكمة ، والذى أرسل الكلام عبارات مقطّعة ، وفى كل عبارة أنوار وأضواء ؛ فقال له كسرى : « ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضعك كلامك فى غير موضعه ! قال أكثم : الصدق ينبىء عنك لا الوعيد . قال كسرى : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . قال أكثم : رُبّ قول أنفذ من صَوْل » .

وكلام أكثم نُثار منثور ، وأفكار ملتمعة من غير رابط ولا جامع . وإنه لمن الصعب بل من المستحيل جمع تلك الأفكار فى تسلسل منطقى . فمحاولتنا فى التنظيم والترتيب محاولة تقريبية . وأول ما نقوله إن آراء ابن صيفىّ لا تخرج عن نطاق العمل ، فهى من الفلسفة الأخلاقية التى تعالج المجتمع ، والذات فى ذلك المجتمع . ورأس المجتمع السلطة . والسلطة فى نظر البدوى أمير . والسلطة ضرورية لقيام المجتمع : « شر البلاد بلاد لا أمير بها » . وذلك أن البلاد أى المجتمع كالجسم ، والجسم بلا رأس هو كل شىء غير الجسم الذى يُدعى جسما ، وبتعبير فلسفى : المجتمع مادة والسلطة صورة . والسلطة للغير لا للنفس : للنفع العام : « أفضل الملوك أعمها نفعاً » . والسلطة عدل واستقامة ، وأقوى دليل على ظلم السلطان خوف البرىء : « شر الملوك من خافه البرىء » . والسلطة اعتدال فلا هى تشديد ينفر ولا هى تراخ يؤلف : « من شدّد نفّر ومن تراخى ألّف » . والسلطة هيبة قائمة على حسن اختيار الأعوان وعلى الصدق فى القول والعمل :

« خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة » — « الصدق ينبيء عنك لا الوعيد » — « رب قول أنفذُ من صَوْل » . والسلطة أخيراً قوة تنفيذية بواسطة الجنود، و « أحق الجنود بالنصر من حسنت سريرته » . وقبل كل شيء وبعد كل شيء : السلطة غير الاستعباد ، وغير التفرد بالحكم والرأى ، بل هى شورى لأن « آفة الرأى الهوى » ، و « المرء يعجز لامحالة » . ومن ثم «فإصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى » و « من فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء . »

ثم إن خطة الحياة بين أفراد المجتمع قائمة بالحزم ، والصبر ، والبر بالآباء ، والقناعة، وضبط اللسان وما إلى ذلك من الخلال. ويزيد أكثم على ذلك العبارة التالية : « حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة » . وكأنى بها عبارة ناشزة بين سائر الحكم الذهبيّة . وهى فى الحقيقة غير ناشزة بالنظر إلى البيئة والمجتمع لأن :

مَنِ استنامَ إلى الأشرار نامَ وفى قميصه منهمُ صِلٌّ وثعبانُ

فهو يعنى بحسن الظن الاستنامة ، والاطمئنان ، والاسترسال ؛ وهو يعنى بسوء الظن الحذر والتيقّظ : فرب نكبة يجرها الاطمئنان إلى الناس والاستنامة إليهم، ورب مصيبة يدفعها الحذر والتيقظ .

تلك خلاصة آراء ذلك الحكيم الجاهلى . وهى فى الحقيقة عصارة الحكمة العملية . وهى فى الحقيقة ذات قيمة تستلفت النظر والعقل المفكر . ولأكثم حكم وأمثال أخرى كثيرة وهى كلها من هذا الطراز العالى .

* زهير بن أبى سلمى (٥٣٠ — ٦٢٧ م) قاضى الشعراء . وهو شاعر مُضَرِى ولد فى نجد، وترعرع فى غطفان، وتخرّج على بشامة الشاعر الحكيم خال أبيه . وشهد حرب السباق بين عبس وذبيان وسعى فى الصلح ومدح المصلحين فى معلقته التى اختتمها بطائفة من الحِكَم .

يرمى زهير فى معلقته إلى مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف اللذين تحملا ديات القتلى فى حرب السباق أو حرب داحس والغبراء ، وحقنا الدماء بين المتقاتلين . فافتتح كلامه بالوقوف على الأطلال جرياً على عادة الأقدمين ثم انتقل إلى مدح المصلحين ، وتطرق إلى الصلح فبين أنه سبيل الهناءة فى العيش إذا كان صادقاً ، وبيَّن أن الحرب شر ووبال ، ثم نثر حكماً جعلها قاعدة السعادة وطريق الوفاق .

يبدو لنا زهير من معلقته شيخاً شبع من الأيام ، وحكيما تفهم قيمة الحياة ومعناها ، لا تطغى عليه عاطفة جموح ، ولا يثور به خيال صبيانى ، فهو هادئ السرب ، يقوده عقل نير وبصيرة واعية ، فيتخذ العادات العربية النبيلة نبراساً ، فى ظل حياة هادئة سعادتها فى هدوئها وسلامها . وهو ينصب نفسه حكماً ومرشداً فى قومه ، يشجع المصلحين ويدعو إلى التفاهم .

وكأنى به يختم قصيدته بطائفة من الحكم ليزيد من مدحه ومن أسدى إليه النصح ثباتاً وعقيدة ، وكأنى به يريد أن يسن دستوراً للحياة الاجتماعية ليصب فيه عصارة معارفه وخلاصة خبرته . فيعمل عقله التفكيرى لا عقله التأليفى — وأنى له أن يؤلف ويربط بين الأفكار وهو الرجل الفطرى ؟ — ثم ينثر أفكاره وإذا هى نظريات صادقة فى الحياة وحسن التصرف ؛ وهو يذكر قانون العمل ويضيف إليه قانون العقوبات ، وهو يقدم قانون العقوبات كنتيجة طبيعية للإهمال فى القيام بالعمل . وزهير يقف موقف المتأمل الذى يذكر ويذكر من غير أن ينهى أو يأمر ، وكلامه من ثم دعوة إلى التأمل والاعتبار ، فلا حث ، ولا حض ، ولا ترغيب ، ولا ترهيب ، إنما بسط للحقيقة واستنتاج يصل بطريقة غير مباشرة إلى الحث والأمر والنهى . وكأنى بأبياته ، فى صيغتها وأسلوبها ، صوت القضاء يدوى فى أذن الوجود .

هذا هو المجمل وإليك التفصيل :

الحقيقة الأولى التى يقف عندها زهير فى أول أمره هى أن الحياة طريق وأنها إن طالت، مدعاة إلى السأم :

سَئِمْتُ تَكاليفَ الحَياةِ ومَنْ يَعِشْ ثَمانينَ حَوْلًا لا أَبالكَ يَسْأَمِ

فالحياة تجرى والناس معها يجرون . حقيقة هائلة وقف عندها الفلاسفة مفكرين، وحاولوا الكشف عن مكنوناتها فعادوا مضطربين . . . حقيقة نلمسها ولا نكاد نأبه لها : الحياة تجرى ، والحياة سلسلة مصائب وصعوبات . والأحياء فى مغامرة غريبة : إنهم يسيرون وهم لا يعلمون ما يخبىء لهم الغد، والمنايا فى صفوفهم تخبط خبط عشواء لا تبصر ولا تميز ، والناس أبداً سائرون وهم لا يكادون يأبهون :

رأَيْتُ المنايا خَبْطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ ومن تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

فعلى العاقل إذن أن يعتبر وأن يملأ الحياة من الأعمال الاجتماعية الصالحة التى تعلى الشأن وتقصى الشر . وها هو ذا زهير يبسط دستوره الاجتماعى فى ناحيتيه : العمل والعقوبة الناتجة عن الإهمال :

وأول شىء يراه من ضرورات الحياة الاجتماعية : المصانعة. والمصانعة هى « الدبلوماسية » الاجتماعية ، هى أن يلبس الإنسان لكل شىء لبوسه ، هى أن يجارى الناس والأحداث فى غير رياء حقيقى ، وفى غير خروج عن الشخصية وعن الرأى الشخصى ؛ هى أن يلين المرء جانبه ليسلك ، وأن يتلمس لينزلق وينطلق . ويرى زهير أن المصانعة لا بد منها فى أمور كثيرة لأن الذى لا يصانع يحطم :

ومَنْ لا يُصانِعْ فى أمورٍ كثيرةٍ يُضَرَّسْ بأنْيابٍ ويوطَأْ بِمَنْسِمِ

وبعد المصانعة يقدم زهير رأيه فى المعروف وبذله ، ويرى أن المعروف حصن

للشرف ، وأن بذل الفضل مجلبة للمحامد ولا سيما إذا كان البذل فى محله ، بل إن البذل فى غير محله مجلبة للقدح والذم . وأفضل المعروف ما كان للقوم والعشيرة ، وهنا تظهر النزعة الاجتماعية القبلية عند الشاعر ، تلك النزعة الجاهلية التى لا تعرف أن تتخطى الحدود والسدود ، ولا تعرف أن تبسط ذراعيها للإنسان بصفة كونه إنساناً .

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى فلسفة المسالمة الاجتماعية على أنها تنجى من فتكة القوة . وهنا تظهر نزعة الشيخوخة التى تؤثر الصبر والتحمل على الغضبة ، والتى تتنكر لفلسفة القوة التى نجدها عند المتنبى مثلاً . فالمصانعة والمسالمة وغض النظر والإغضاء كل ذلك آمن للإنسان الذى يريد أن يعيش فى سلام وإن كان السلام فى كوخ حقير . وكأنى بذلك الشيخ يعود فينتفض انتفاضة بدوية فيقول إن من لا يدفع الظلم يظلم ، وإن من لا يقف فى وجه الطغيان يغرق ، وإن من لا يكشر عن أنيابه يؤكل :

وَمَنْ لا يَذُدْ عَنْ حوضِه بسلاحِهِ يُهَدَّمْ ومَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

وفى هذا البيت وثبة جاهلية ، وفيه صدى لقول المثل اللاتينى المعروف : « إن أردت السلم فتأهب للحرب » .

ثم يصل زهير إلى الحقيقة التى تحتوى خلاصة دستور الاجتماع : أكرم نفسك تكرم ، احترم نفسك تحترم . فبقدر ما يعرف الإنسان قيمة نفسه ، يسعى وراء المحاسن ويتجنب المساوئ .

ثم يختتم الشاعر دستوره بحقيقة أخيرة ، وهى أن من أراد إصلاح نفسه فليقبل عليها فى صباها لأن تقويم الغصن اللين ممكن وأما تقويم الغصن القديم الأيام فطريق إلى الحطمة والانكسار .

وهكذا يبدو لنا زهير فى حكمته رصيناً عاقلاً ، بعيداً عن الغلو والغرور ،

قريباً من المادة والحقيقة المادية ؛ وهو فى حكمته يطلعنا على الناحية المترصنة من البيئة الجاهلية ، وعلى النفسية الفطرية فى نزعاتها الجدية ، إلا أنه يبقى ضمن نطاق الحياة العادية ، ولا يستمد أفكاره من الحقائق الماورائية والتعاليم الدينية . فحكمته من الأرض وإلى الأرض .

* لبيد بن ربيعة (٥٦٠ — ٦٦١ م) هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامرى المضرى . وقد نشأ فى قومه كريماً شريفاً ، وفارساً شجاعاً . دخل فى الإسلام نحو سنة ٦٢٩ ، وقضى أيام شيخوخته فى الكوفة . وقد توفى نحو سنة ٦٦١ للميلاد وله من العمر أكثر من مئة سنة .

وللبيد شعر حكمى ، إليك شيئاً منه . قال يرثى أخاه أربد وينظر إلى الحياة نظرة الحكيم الرصين :

بَلِينَا وما تَبْلَى النُّجُومُ الطَّوالِعُ ... وَتَبْقَى الدِّيَارُ بَعْدَنا وَالْمَصَانِعُ[1]

وَقَدْ كُنْتُ فى أَكْنَافِ دَارِ مَضِنَّةٍ ... فَفَارَقَنى جَارٌ بِأَرْبَدَ نَافِعُ[2]

فَلا جَزَعٌ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بيننا ... فكلُّ امرِئٍ يوماً به الدَّهْرُ فاجِعُ

وما الْمَرْءُ إلا كالشِّهابِ وَضَوْئِهِ ... يحورُ رمادًا بعدَ إذ هو ساطِعُ[3]

وما المالُ والأَهلونَ إلا ودائعٌ ... ولا بُدَّ يوماً أن تُرَدَّ الوَدَائِعُ

وما النَّاسُ إلا عَامِلانِ ، فعاملٌ ... يُتَبِّرُ ما يُبْنَى وَآخَرُ رافِعُ[4]

فمنهم سَعيدٌ آخِذٌ بِنصيبِهِ ... ومنهم شَقِىٌّ بالمعيشةِ قانِعُ

---

(١) المصانع : أى المدن الحصون وكل ما عظم بناؤه .

(٢) الأكناف : الجوانب . دار مضنة : دار يضن بها .

(٣) يحور : يتحول .

(٤) يتبر : يهدم .

أليس ورائى ، إن تراخت مَنِيَّتى ، لزومُ العصا تُحنى عليها الأصابعُ[1]

أُخبِّر أخبارَ القرون التى مضت أدِبُّ كَأنى كلما قمتُ رَاكِعُ

فأصْبَحْتُ مِثْلَ السَّيْفِ أَخْلَقَ جَفْنَهُ تَقَادُمُ عَهْدِ القَين ، والنَّصْلُ قاطعُ[2]

فلا تَبْعَدَنْ إنَّ المنيَّـةَ مَوْعِدٌ علينا ، فدانٍ للطُّلوعِ وطالِعُ[3]

أَعَاذِلُ ، ما يُدْرِيكِ إلا تَظَنِّياً إذا رَحَلَ السُّفارُ، من هو راجعُ[4]

أَأَجْزَع مما أحدث الدهر بالفتى ؟ وأىُّ كريمٍ لم تُصِبْهُ القوارعُ؟[5]

لعمركَ ، ما تدرى الضوارب بالحصى ولا زاجراتُ الطير ، ما الله صانعُ[6]

أَلا كُلُّ شيءٍ ، مَا خَلَا اللهَ ، باطِلُ وَكُلُّ نَعِيمٍ ، لَا مَحَالَةَ ، زَائِلُ

إِذَا المَرْءُ أَسْرَى لَيْلَةً ظَنَّ أَنَّهُ قَضى عَمَلًا ، والمَرْءُ مَا عَاشَ ، آمِلُ

حَبَائِلُهُ مَبْثُوثَةٌ بِسَـبِيلِهِ وَيَفْنى إِذَا مَا أَخْطَأَتْهُ الحَبَائِلُ

فَقُولا لَهُ ، إِنْ كانَ يَقْسِمُ أَمْرَهُ : أَلَمَّا يَعِظْكَ الدَّهْرُ ؟ أُمُّكَ هَابِلُ !

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَصْدُقْكَ نَفْسُكَ فَانْتَسِبْ لَعَلَّكَ تَهْدِيكَ القُرُونُ الأَوَائِلُ

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنَانَ وَالِدًا وَدُون مَعَدٍّ فَلْتَزَعْكَ العوَاذِلُ

وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْماً سَيَعْلَمُ سَعْيَهُ إِذَا كُشِفَتْ عِنْدَ الإِلٰهِ المحَاصِلُ

---

(١) تراخت منيتى : تأخر زمن موتى .

(٢) أخلق : أبلى . جفنه : غمده وقرابه . القين : حداد السيوف .

(٣) لا تبعدن : خطاب لأخيه .

(٤) أعاذل : يا عذلتى أى يا لائمتى . تظنياً : أى بالظن والحدس .

(٥) القوارع : المصائب .

(٦) الضوارب بالحصى : أى اللواتى يرمين بالحصى طيراً جاثماً ويزجرنه حتى إذا طار إلى اليمين تفاءلن وإذا طار إلى اليسار تشاءمن .

أكثر حكمة لبيد فى شعره الذى رثى به أخاه أربد وقد انقضت عليه صاعقة فأودت بحياته . وهذه الحكمة هى حكمة القلب الذى اشتد عليه الحزن ، والنفس التى لم تجد ملجأ تتعزى فيه غير التأمل فى حقيقة الحياة ، والعقل الذى لم يتجرد من العاطفة ولم يسلك مسلك الجمود النظرى فى ما ينثر من آراء .

ومجمل آراء لبيد أن حياة الإنسان صائرة إلى الزوال ، وأن كل ما يملكه الإنسان هو وديعة لا بد من ردها آجلاً أو عاجلاً ، وأن الناس اثنان : بان وهادم، وأن السعادة نصيب قسم من البشر، والشقاء نصيب القسم الآخر . . . لهذا كله وجب على الإنسان أن لا يجزع إذا ألمت به مصيبة ، وأن يلزم جانب الصبر والجلد ، ولا سيما وأن القوارع تصيب كل كريم .

وحكمة لبيد ذات نزعة كئيبة هى نتيجة نظرة جريئة وصادقة إلى الحياة ، ونظرة إلى الفقيد وقد ترك فراغاً فى نفس أخيه ؛ وإنك وأنت تقرأ أبيات لبيد تشعر بجو من الوجوم ورهبة الموت ، وتشعر بأن الشاعر يستخف بالحياة مهما طالت ، فهو يزج بك فى هوة الموت لترى وتقتنع ، ويكرر فكرته التشاؤمية من غير ملل ، رغبة منه فى التقرير ، وهكذا يسير بك الشاعر من قبر إلى قبر ، ومن لحد إلى رماد ، ومن رماد إلى لا شيء مادّى وإلى نفس تخلد فى رحمة الله . وهو لا يؤمن بخرافات الجاهليين من زجر الطير وما إلى ذلك اعتقاداً منه أن ما يصنع الله لا يعرفه بشر .

وحكمة لبيد ملتصقة بنفسه وليست كحكمة زهير آراء عامة موجهة إلى الناس ، فهو يجعل لنفسه نصيب غيره ، وهو يشعر بنكبات الحياة فنشعر بشعوره . ثم إن فى كلامه من السهولة والسلاسة ما يزيده تأثيراً[1]

---

(١) طالع كتابنا « الجديد فى الأدب العربى وتاريخه » الجزء ٥ صفحة ٣٣١ — ٣٣٤

* طرفة بن العبد (٥٤٣ – ٥٦٩ م) هو الشاب الذى انهالت عليه المصائب فأبرزت شخصيته وأنطقته بالحكمة التى نثرها فى ديوانه فكانت مصبوغة بصبغة الوعى والحنكة . ومدار حكمته على زوال الحياة واصطناع الخير ثم على حسن المعاملة وعلى التصرف بعقل وفطنة . فالحياة ، مهما طالت ، سريعة الزوال والأعمال هى التى تحاسب الإنسان فى آخر الحياة . والشاهد على زوال الحياة ذهاب لقمان بن عاد الطويل الأيام والإسكندر ذو القرنين الشديد الحسام . وأحسن زاد يتزوده الإنسان هو الخير والخير وحده :

اَلخيْرُ خَيْرٌ وإن طالَ الزَّمانُ بهِ والشرُّ أَخْبَثُ ما أوعَيْتَ من زادِ

وسبيل الإنسان فى الحياة أن يكون ذا صدر رحب فيعامل الناس بخلق واسع

خالطِ الناسَ بخلقٍ واسعٍ لا تكُنْ كَلْبًا على الناسِ تهِرْ

ويقدم طرفة للناس دستور الحكمة والفطنة فيقول :

إذَا كُنْتَ فى حاجَةٍ مُرْسِلًا فأرسِلْ حَكيماً ولا توصهِ
وإنْ ناصِحٌ منكَ يوماً دَنَا فلا تَنْأَ عَنْهُ ولا تُقْصهِ
وإنْ بابُ أمرٍ عَلَيْكَ الْتوى فشَاوِرْ لَبيباً ولا تَعْصِهِ
وذُو الحقِّ لا تَنْتَقِصْ حَقَّهُ فإنَّ القطيعــة فى نَقْصِهِ
ولا تَذْكُرِ الدَّهْرَ فى مَجْلسٍ حديثاً إذا أنْتَ لم تُحْصِهِ
ونُصَّ الحديثَ إلى أهْلِهِ فإنَّ الوَثيقةَ فى نَصِّهِ[1]

(١) الوثيقة : الإحكام .

ولاَ تَحْرِصَنَّ فربَّ امرئٍ حريصٍ مُضَاعٍ على حِرْصِهِ
وكَمْ مِنْ فتًى ساقطٍ عَقْلُهُ وقَدْ يُعْجَبُ الناسُ من شَخْصِهِ
وآخَرَ تَحْسبه أنْوَكاً ويأتيكَ بالأمْرِ مِنْ فَصِّهِ (١)
لَبِسْتُ الليالى فأفْنَيْنَنى وسَرْبَلَنى الدَّهرُ فى قُمْصِهِ

وإنك لتلحظ فى هذه الأبيات حكمة اجتماعية عميقة مبنية على عقل مفكر وبصيرة نيرة .

* عدى بن زيد العبادى (٦٠٤ م) هو عدى بن زيد بن حماد بن أيوب التميمى . كان والده متولى البريد فى الحيرة من قبل كسرى أنو شروان ، كما تولى تربية النعمان بن المنذر الرابع . وقد اتصل ابنه عدى بفارس وتعلم الفارسية ، وكان ترجمان كسرى أبرويز ملك فارس وكاتبه بالعربية ، وكان له الكلمة المسموعة لديه ، فلما قتل عمرو بن هند أشار عدى على ملك الفرس بتولية النعمان بن المنذر على العرب ففعل ، ثم إن النعمان تخوف من عدىّ وسمع لأقوال الوشاة والحاسدين فسجنه ، فلما بلغ كسرى خبر سجنه أرسل إلى النعمان يأمره بإطلاقه ، فلم يفعل النعمان بل أمر بقتل السجين تخلصاً منه . وكان ذلك نحو سنة ٦٠٤ م .

وكان عدى شاعراً نصرانياً ، وقد نظم الشعر باثّاً فيه من روحه الدينى زهداً ، ومقتبساً فيه من التوراة قصصاً مثل قصة حواء والحية . وإليك شيئاً من قصيدة نظمها فى السجن ووجهها إلى النعمان أبى قابوس وفيها طائفة من حكمه :

---

(١) الأنوك : الجاهل . من فصه : من أصله .

أيُّهَا الشَّامتُ المُعَيِّرُ بالدَّهْرِ ، أأنْتَ المُبرَّأُ المَوْفُورُ ؟ [١]
أمْ لَدَيْكَ العَهْدُ الوَثيقُ مِنَ الأيَّامِ ، بَلْ أنتَ جاهِلٌ مَغْرورُ
مَنْ رَأيْتَ المَنُونَ خلَّدْنَ ، أمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أنْ يُضَامَ خَفِيرُ [٢]
أيْن كِسْرَى ، كِسْرَى المُلوكِ أبُو سَاسَانَ ، أمْ أيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ ؟
وَبَنُو الأصْفَرِ الكِرَامُ مُلوكُ الرُّومِ ، لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكُورُ
وتَبَيَّنْ رَبَّ الخوَرْنَقِ إذْ أشْرَفَ يوماً ، وللهُدَى تفْكِيرُ [٣]
سَرَّهُ حالُه ، وكَثْرةُ ما يَمْلِكُ ، والبَحْرُ مُعْرِضاً وَالسَّدِيرُ [٤]
فَارْعَوَى قَلْبُهُ ، فقَالَ : وَمَا غِبْطَةُ حَيٍّ إلى المَمَاتِ يَصِيرُ ؟ [٥]
ثُمَّ بَعْدَ الفَلاحِ وَالمُلْكِ وَالإمَّةِ وارَتْهُمُ هُناكَ القُبُورُ [٦]
ثم صاروا كَأنَّهم وَرَقٌ جَفَّ ، فألْوَتْ بِهِ الصَّبَا والدَّبورُ ! [٧]

يبدو لنا من هذه الأبيات وغيرها أن حكمة عدىّ هى حكمة جاهلية استخلصها من خبرته الشخصية ومن مبادئه الدينية ، وكانت سطحية بعيدة عن التحليل والتعليل ، تدور حول فكرة أو فكرتين رئيسيتين مرجعهما إلى أن الموت خاتمة حياة كل إنسان وأن الموت لا يفرق بين صغير وكبير ، وضعيف وقدير ،

---

(١) المبرأ الموفور : أى الذى لا يناله الدهر بأذى .
(٢) الخفير : الحارس .
(٣) الهدى : العقل .
(٤) معرضاً : ذاهباً عرضاً وطولا . والسدير : نهر ، وقيل قصر .
(٥) فارعوى قلبه : رجع عن غروره .
(٦) الأمة : غضارة العيش والنعمة .
(٧) ألوت به : ذهبت به . الصبا : الريح الشرقية . الدبور : الريح الغربية .

وغنىّ وفقير . وعدىّ يحاول البرهان على آرائه بالتمثيل والتشبيه ، ويعمل جهده ليبثّ الرهبة فى قلب السامع عله ينظر إلى حقيقة الدهر وأحوال الناس فيتعظ ولا يتعلق بحطام الدنيا بل يصبو إلى الآخرة ، ويرتقى بنفسه وقلبه إلى العلاء .

وأسلوب عدى هو أسلوب السذاجة ، وكلامه سهل قد لينته الحاضرة وجعلته ناعم الجرس رائع التشبيه والتصوير أحياناً . بعيداً عن كل تعقيد ؛ وهذا اللين ينحدر أحياناً إلى الركاكة . وإنك لتشعر أن لغة ابن زيد تتثاقل أحياناً ، وأن الشاعر لا يملك ناصية القوافى فلا تنقاد له ، ولا يقلبها كما يشاء ، ولهذا كله لم يعده العلماء الأقدمون حجة فى الشعر [1] .

---

(١) طالع كتاب « الجديد فى الأدب العربى وتاريخه » الجزء ٥ ص ٢٣٥ – ٢٣٧

الفصل الثالث

الحكمة والمثل فى الإسلام

انتقلت أمثال الجاهلية وحكمها ، فى قسم كبير منها ، إلى الإسلام ، وذلك على ألسنة الشعب والرواة ، ثم زاد عليها الإسلام قسماً آخر كبيراً مصطبغاً بصبغته ، متمشياً وروحه . وإن من تتبع تلك الأمثال والحكم وجد طائفة كبيرة منها فى القرآن الكريم وعلى لسان النبى عليه السلام وخلفائه الراشدين ولاسيما على بن أبى طالب ، ثم على لسان طائفة أخرى من الناس اشتهرت بالقيمة الاجتماعية والسياسية . وإننا سنقتصر فى دراستنا هذه على الحكمة فى القرآن الكريم وفى نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب .

● القرآن الكريم : قال أحمد أمين : [فى القرآن من الأخلاق نوعان نوع هو تعليم لآداب السلوك : « وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » ، « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » ، ونوع آخر هو أسمى ما تدعو إليه الأخلاق : وفاء بالوعد ، وصبر فى الشدائد ، وعدل مع من أحببت أو كرهت ، وعفو عند المقدرة ، وعفة فى غير تزمت : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » ، « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » ، « خُذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « قُل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ، « قُل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

هدم الإسلام الوحدة القبلية ، والوحدة الجنسية ، وكره التفاضل بشرف

القبيلة أو شرف الجنس ، وعلم أن معتنقى الإسلام كلهم كتلة واحدة ، لا تفاضل بين أفرادها إلا بطاعة الله وتنفيذ أمره : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكمْ » ، « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وفى الحديث : «ليس منا من دعا إلى عصبية أو قاتلَ عصبيةً » .

حتّم الطاعة لله ، والطاعة للرسول ، والطاعة لأولى الأمر فى الأمة ما أطاع ولىّ الأمر أوامر الله : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكمْ » ، وفى الأثر : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » .

لا شك أن هذه التعاليم رفعت المستوى العقلى للعرب إلى درجة كبرى ، فهذه الصفات التى وصف الإسلام بها الله نقلتهم — من عبادة أصنام وأوثان ، وما يقتضيه ذلك من انحطاط فى النظر وإسفاف فى الفكر — إلى عبادة إله وراء المادة « لا تدركه الأبصارُ وهو يُدرك الأبصارَ » . وكان الإله عند أكثرهم إله قبيلة وإن اتسع سلطانه فإله قبائل أو إله العرب ، فأبانه الإسلام إله العالمين ومدبر الكون ، وبيده كل شىء ، وعالماً بكل شىء ، فاستطاع العربى بهذه التعاليم أن يرقى إلى فهم إله لا مادة له ، واسع السلطان ، واسع العلم . . .

كان للإسلام أثر كبير فى تغيير قيمة الأشياء والأخلاق فى نظر العرب ، فارتفعت قيمة أشياء ، وانخفضت قيمة أخرى ، وأصبحت مقومات الحياة فى نظرهم غيرها بالأمس . . .

وقد عقد الأستاذ « جولدزيهر » فصلا فى نقط النزاع بين الإسلام والفضائل عند العرب فى الجاهلية عنونه « بالدين والمروءة » ، وهو يتلخص فى « أن الإسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى للحياة فى الجاهلية ، وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان ، فالشجاعة الشخصية ، والشهامة التى لا حد لها ، والكرم إلى حد الإسراف ، والإخلاص التام للقبيلة ، والقسوة

فى الانتقام ، والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل ، هذه هى أصول الفضائل عند العرب الوثنيين فى الجاهلية ، أما فى الإسلام فالخضوع لله والانقياد لأمره ، والصبر ، وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين ، والقناعة . وعدم التفاخر والتكاثر ، وتجنب الكبر والعظمة هى المثل الأعلى للإنسان فى الحياة » . . .

وبعد ، فإلى أى حد تأثر العرب بالإسلام ؟ وهل امحت تعاليم الجاهلية ونزعات الجاهلية بمجرد دخولهم فى الإسلام ؟ الحق أن ليس كذلك . وتاريخ الأديان والآراء يأبى ذلك كل الإباء ، فالنزاع بين القديم والجديد ، والدين الموروث والحديث ، يستمر طويلاً ، ويحل الجديد محل القديم تدريجاً ، وقل أن يتلاشى بتاتاً ، وهذا ما كان بين الجاهلية والإسلام ، فقد كانت النزعات الجاهلية تظهر من حين إلى حين وتحارب نزعات الإسلام ، وظل الشأن كذلك أمداً بعيداً . ولنقص طرفاً من مظاهر هذا النزاع .

جاء الإسلام يدعو إلى محو التعصب للقبيلة ، والتعصب للجنس ، ويدعو إلى أن الناس جميعاً سواء : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وفى الحديث : « المؤمنون إخوة ، تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » ، وخطب النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع : « أيها الناس ! إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » . وروى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من قاتل تحت راية عمية [1] يغضب لعصبية أو يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية فقد قتل قتلة جاهلية » . وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار بعد ما كان بين المكيين والمدنيين من عداء . . .

---

(١) العمية : الضلالة .

ومع كل هذه التعاليم لم تمت نزعة العصبية ، وكانت تظهر بقوة إذا بدا ما يهيجها . . .

ولما ولى الأمويون الخلافة عادت العصبية إلى حالها كما كانت فى الجاهلية ، وكان بينهم وبين بنى هاشم فى الإسلام كالذى كان بينهم فى الجاهلية ، افتخر الأمويون بالدهاء والحلم وكثرة الخطباء والشعراء ، ورد عليهم بنو هاشم يكاثرونهم فى ذلك ، وكان جدالهم ومفاخرتهم صورة صادقة للمنافرة فى الجاهلية ، وعاد النزاع فى الإسلام بين القحطانية والعدنانية ، فكان فى كل قطر عداء وحروب بين النوعين ، واتخذوا فى كل صقع أسامى مختلفة ، ففى خراسان كانت الحرب بين الأزد وتميم ، والأولون يمنيون والآخرون عدنانيون ، وفى الشام كانت الحرب بين كلب وقيس ، والأولون يمنيون والآخرون عدنانيون ، ومثل ذلك فى الأندلس ، ومثل ذلك فى العراق . . .

وأنت إذا نظرت إلى الشعراء فى بنى أمية ، وجدت فيهم هذا المعنى واضحاً جلياً؛ فالشعراء انحازوا إلى قبائل، ثم أخذوا يشيدون بذكر قبائلهم، ويهيجون غيرهم شأن شعراء الجاهلية . ولعل أصدق مثل لذلك ما ترى فى هجاء جرير والفرزدق والأخطل .

ليست ناحية العصبية هى وحدها ما يظهر لنا فى عهد الإسلام من نزعات جاهلية فهناك نزعات أخرى لا تقل عنها وضوحاً .

من ذلك : حروب الردة ، وذلك أن كثيراً من قبائل العرب عدوا دفع الزكاة للخليفة ضريبة عليهم ومذلة لهم ، ونظروا إليها نظرهم إلى قبيلة تتسلط على أخرى ، وتضرب عليها الإتاوة ، فانتهزوا موت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعبروا عن شعورهم الجاهلى برفض دفعها لأبى بكر . . .

أضف إلى ذلك ، أن بعض المسلمين — وخاصة من سكان البادية — كانوا ينزعون فى معيشتهم الاجتماعية النزعة الجاهلية من مهاجاة وحمية وشراب ونحو ذلك . . .

بل إن كثيراً من شبان بنى أمية ، وبعض شباب بنى هاشم كانوا يعيشون عيشة هى إلى الجاهلية أقرب منها إلى الإسلام ، شراب وصيد وغزل ، كيزيد ابن معاوية وصحبه ، فقد حكى المسعودى « أنه كان صاحب طرب وجوارح وكلاب (للصيد) ومنادمة على الشراب ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهى ، وأظهر الناس شرب الشراب ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله » . . .

بجانب هذا ترى قوماً صبغهم الإسلام صبغة جديدة ، حتى انقطعت الصلة بينهم جاهليين وبينهم مسلمين ، كالذى ترى فى سيرة أبى بكر وعمر وكثير من الصحابة ، ورع وزهد وتواضع ، والتزام شديد لأوامر الدين ، وحياة لا تستطيع أن ترى فيها مأخذاً جاهليا ينافى الإسلام ، وتجد فى خطبهم وكتبهم وأقوالهم أثر الإسلام بيناً ، حتى كأنهم خلقوا فى الإسلام خلقاً جديداً . .

إذن كان فى العصور الأولى للإسلام نزعات جاهلية ، ونزعات إسلامية ، كانتا تسيران جنباً إلى جنب ، والذى يظهر لنا أن النزعة الجاهلية أثرت فى الأدب الأموى — وخاصة الشعر — أكبر أثر ، فالمعانى الجاهلية ، والهجاء الجاهلى ، والفخر الجاهلى ، والحمية الجاهلية، كلها واضحة أجلى وضوح فى الشعر الأموى . فأما النزعة الإسلامية فظهرت فى العلوم الشرعية ، فقد أقبل المسلمون على القرآن يتدارسونه ، والحديث يجمعونه ، ويستمدون منهما الأحكام ، ويستخرجون المواعظ . [

* على بن أبى طالب (٦٦١ م) هو الإمام رابع الخلفاء الراشدين ، صاحب كتاب « نهج البلاغة » الشهير . وكتاب نهج البلاغة مجموعة خطب ورسائل وحكم جمعها الشريف الرضى ، وانتهى من جمعها سنة ١٠٠٩ م — ٤٠٠ هـ قال الشريف : « ورأيتُ كلامه ، عليه السلام ، يدور على أقطاب ثلاثة ، أولها الخطب والأوامر ، وثانيها الكتب والرسائل ، وثالثها الحكم والمواعظ ،

فأجمعتُ ، بتوفيق الله سبحانه ، على الابتداء باختيار محاسن الخطب ، ثم محاسن الكتب ، ثم محاسن الحكم والأدب ، مفرداً لكل صنف من ذلك باباً ، ومفصلاً فيه أوراقاً ، لتكون مقدمة لاستدراك ما عساه يشذ عنى عاجلاً ، ويقع إلىّ آجلاً . . . وربما جاء فيما أختاره من ذلك فصول غير منسقة ، ومحاسن كلم غير منتظمة ؛ لأنى أورد النكت واللمع ، ولا أقصد التتالى والنسق . »

وقد ذهب البعض إلى الشك فى صحة نسبة نهج البلاغة إلى الأمام ، ولكنهم لم يأتوا من البراهين بما يقنع ، ولم يثبتوا من الشواهد ما يقف أمام عين الناقد البصير .

وحكم على هى ولا شك عصارة تفكيره ، وإشعاعات بصيرته النيرة ، وخلاصة خبرته ومعرفته للناس والحياة . وهى ولا شك دستور قيم من دساتير الحياة المثلى التى ترفع المجتمع البشرى إلى مستوى عال ، وتقيم للعدل والسلام ميزاناً وللإخاء والمحبة قسطاساً .

تدور حكم الإمام علىّ حول قضايا الاجتماع العامة ومرجعها إلى واجبات الإنسان نحو نفسه وواجباته نحو غيره . أما ما يتعلق بنفس الإنسان فيدور حول معرفة النفس أولاً . قال الإمام : « هلك امرؤ لا يعرف قدْره » . ومعرفة النفس فى نظره أصل كل إصلاح وأساس كل معرفة وطريق إلى كل خير . وهى الشرط الأساسى لحسن معاملة الغير ، والابتعاد عن الشر ، فإن « من نظر فى عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره » ، و « من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته » ومعرفة النفس الحقيقية تكشف العيوب وتحمل على التأدب : « من نصب نفسه للناس إماماً ، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم . » ومعرفة النفس مجلبة لمرضاة الله : « من كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ . » تلك هى نظرية الإمام علىّ فى معرفة النفس وهى نظرية فلسفية قديمة رددتها الأجيال ، وجعلها الحكماء وأرباب التصوف فى أساس كل

علاقة اجتماعية كما جعلوها قسطاس كلّ رقيّ فى عالم الروح . ولو كان كل إنسان عارفاً نفسه تمام المعرفة ومطلعاً تمام الاطلاع على مساويها ومحاسنها لسعى جهده فى التزيد من المحاسن واستئصال المساوىء ، ولكان للغير رحيما ، وعن مساوىء الغير معرضاً ، ولهانت المعاملات وقلّ الغضب والحقد ، وازدادت كمية الاحترام والرأفة .

وما إن ينتهى الإمام علىّ من وضع الأساس حتى يتوجه إلى الإنسان حاثًا على رفع المداميك النفسية مدماكاً فوق مدماك؛ فيحرّض على التقوى لأن التقوى سلاح النفوس والقلوب و « التقى رئيس الأخلاق » . ويحرض على التواضع لأنه ثمرة معرفة النفس فمن عرف نفسه كره أن يتعالى على غيره ، وجعل نفسه فى محلها ؛ ويحرض على القناعة لأن « المال مادة الشهوات » وعلى الاعتصام بالعقل والمعرفة « فلا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجهل ، ولا ميراث كالأدب ، ولا ظهير كالمشاورة » .

والعلم يفرض التزيد منه والجهل يقود إلى الإفراط والتفرط . والعلم يجب أن يقترن بالعمل والإقدام : « لا تجعلوا علمكم جهلاً ، ويقينكم شكًا . إذا علمتم فاعملوا ، وإذا تيقنتم فأقدموا . » وهكذا تظهر نزعة الإمام علىّ الاعتزالية فى تقديمه العقل ، وتظهر نزعته العملية التى تجعل العلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر ، وتظهر أيضاً شخصيته القوية فى عقيدتها وإقدامها ، فى انطلاقها وسيطرتها ، فى زهدها وسموها .

وينتقل الإمام على من العلم إلى اللسان وإذا به يقول : « إذا تم العقل نقص الكلام » و « لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه » ، وإذا بعلىّ ينحى على الثرثار باللوم ويجعل اللسان مصدر بلايا الإنسان لأنه « جموح بصاحبه» .

وهكذا يسير الإمام علىّ فى دستوره الأخلاقى من خلة إلى خلة ، حتى يصل إلى علاقات الإنسان بغيره ، وإذا هو ذو نزعة إنسانية رائعة ، يريد أن يجعل الإنسان

نفسه ميزاناً فيقول : « اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك ، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، وكره له ما تكره لها . » وإن فى هذا الكلام ما نجده فى الإنجيل المقدس دستوراً للمحبة السامية التى بشر بها السيد المسيح . ثم يقول الإمام على مواصلاً : « احصد الشر من صدر غيرك بقلعه من صدرك . » وأى دستور أشدّ إنسانية وحقيقة من هذا الدستور؟ وهو يريد أن يدفع الشر بالخير : « عاتب أخاك بالإحسان إليه ، واردُد شره بالإنعام عليه . » ويريد أن ينظر الإنسان إلى الإنسان بعين الرضى فيرى فيه الخير وإن بدا منه الشر فيقول : « لا تظنن بكلمة خرجت من أحد سوءاً وأنت تجد لها فى الخير محتملاً » وهذا منتهى ما وصل إليه السمو .

ثم ينتقل الإمام على إلى قلب الإنسان ويرى أن الحياة لا تحلو إلا بالصداقة فيسنّ دستور الصداقة ؛ وإذا الأصدقاء ثلاثة والأعداء ثلاثة : « فأصدقاؤك صديقك ، وصديق صديقك ، وعدوّ عدوك . وأعداؤك عدوك ، وعدوّ صديقك ، وصديق عدوّك » ؛ وإذا اكتساب الإخوان ضرورة : « أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم » ؛ وإذا الصداقة تطلب الملاينة : « من لان عوده كثفت أغصانه » ؛ وإذا الصديق « لا يكون صديقاً حتى يحفظ أخاه فى ثلاث : فى نكبته ، وغيبته ، ووفاته » ؛ وإذا الحسد آفة المودّة « حسد الصديق من سقم المودّة » . وعلى يبين من يجب تجنب صداقتهم من الناس فيقول : « يا بنى ! إياك ومصادقة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك ومصادقة البخيل فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه ؛ وإياك ومصادقة الفاجر فإنه يبيعك بالتافه ! وإياك ومصادقة الكذاب فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عليك القريب ! » . . .

ثم ينتقل إلى الأخلاق الاجتماعية الأخرى من وفاء ، وعدل ، وصدقة ،

وجود ، وما إلى ذلك . ومن أروع ما قال الإمام : « إن الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما متع به غنى ، والله تعالى سائلهم عن ذلك . »

تلك بعض آراء على وهى منثورة فى نهج البلاغة من غير ما ترتيب ولا تنسيق ، ولكنها كلها من هذا النمط العالى الذى لا ترتقى إليه إلا كبار النفوس .

تتجلى لنا فى حكم الإمام على شخصية قوية تنصب فى كل لفظة ، ومعرفة عميقة بالنفس البشرية ، وعقل واسع يجمع خبرته إلى ما يستقيه من أقوال الكتب السماوية ، ويذهب بقوة فى العمق وفى الطول مقتنصاً الجواهر من مكامنها ، محلقاً فى أجواء الأجواء ! ومنطق سديد يحاول الإقناع بالحقيقة والإيجاز المرصوص واللغة التى تجمع المتانة والصمود إلى اللين والسهولة ، والبساطة إلى الروعة .

وعلىّ فى حكمه معتزلىّ النزعة باتجاهه العقلى ، وصوفىّ المذهب باتجاهه الزهدىّ ، وواقعىّ الميل باتجاهه العملىّ ، وهو على كل حال إنسانىّ بكل ما فى اللفظة من اتساع وسمو وخلود [١] .

---

(١) طالع كتابنا « الجديد فى الأدب العربى وتاريخه » الجزء ٥ ص ١٠٠ – ١٠٥

الفصل الرابع

الحكمة والمثل فى العهد العباسى وعهد الانحطاط

كانت الحكمة فى العصور السابقة لهذا العهد من ثمار التجربة والدين والتفكير الشخصى الفطرى أكثر مما كانت من ثمار الفلسفة . ولما جاء العهد العباسى وانتشرت حركة النقل وشاعت الثقافات العالمية بين العرب ، وانهال العلماء على كل علم يتدارسونه ويضعون له الأسس والأركان ، ويحددون له القواعد والغايات ، شاع التفكير الفلسفى فى كل جانب من جوانب المعرفة ، وشاع الجمع والتصنيف ، وراح العرب أولا ينقلون الحكم والأمثال التى حفلت بها آداب الهند واليونان والفرس ، ويضفونها إلى حكمهم وأمثالهم ، ثم راحوا بعد ذلك ، فى انكفاء عميق على تلك الذخائر الفكرية ، يستنبطون ما ينير سبل الحياة ، ويساعد على السير القويم فى الوجود ، وإذا للعقل منصة عالية يلقى من فوقها الدروس ، وإذا العقل إمام أكبر ، أو شمس تدور حولها الأقمار ، وإذا للمثل والحكمة قيم أوسع آفاقاً ، وأغوار أشد امتداداً ، وإذا فى الحكمة والمثل نظرات مذهبية فى الحياة وما وراء الحياة .

وها نحن أولاء نعرض لعدد قليل من أولئك الذين اشتهروا بضرب الحكمة والمثل أو الذين جمعوا منهما ما أتيح لهم جمعه ، من مثل ابن المقفع ، وأبى العتاهية ، وأبى تمام ، وابن دريد ، وأبى الطيب المتنبى ، وأبى العلاء المعرى ، وأبى الفتح البستى ، وابن الوردى .

* ابن المقفع (٧٢٤ — ٧٥٩ م) هو الأديب الشاب ، والحكيم الذى اشتهر بالعقل والتفكير ونفاذ البصر فى الأمور . كان فارسيًّا وقد أراد أن ينقل إلى

لغة العرب حكمة الهنود وحكمة اليونان والفرس وغيرهم من الشعوب القديمة ، فترجم كتاب « كليلة ودمنة » ، وجمع كتابى « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » وإننا سنحصر كلامنا فى الكتابين الأخيرين لأنهما يدخلان فى صميم موضوعنا .

تعنى لفظة « أدب » فى نظر ابن المقفع التهذيب الخلقى والرياضة النفسية . قال النبى عليه السلام: « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » . ولهذا أطلق ابن المقفع على كتابيه اسم «الأدب» لأنهما يتناولان أموراً أخلاقية فى جوهرها . قال عبد اللطيف حمزة : « إن ابن المقفع يظهر فيهما كأنه معلم أخلاق ، يشرح هذه الأخلاق فى كتبه شرحاً يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على الدين . . . والخلق فى رأيه أمر يتصل بالعقل قبل كل شىء ، والعقل يميز بين الحسن والقبيح ، يعرفهما بطبيعته ولو لم يدل عليهما شرع أو فضيلة أو أخلاق . . . وابن المقفع فى كتابيه الأدبين كان ناقلاً ومؤلفاً معاً . فهو ناقل لأنه كان حريصاً على أن يكثر من حكم الفرس وأمثالهم ، حتى يملأ أذهان الناس بهذه الحكم والأمثال . يقول مرة : « احفظ قول الحكيم الذى قال » ، ويقول فى أخرى : « وسمعت العلماء قالوا » ، ويقول فى مرات كثيرة : « وكان يقال » وهكذا . . . وهو مؤلف لأنه كان يعمل عقله فى ما ينقله ، وكان له فى ما ينقله غرض يرمى إليه دائماً (١) » .

ويقول ابن المقفع فى مقدمة الأدب الصغير : « قد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عون على عمارة القلوب وصقالها ، وتجلية أبصارها ، وإحياء للتفكير ، وإقامة للتدبير ، ودليل على محامد الأمور ، ومكارم الأخلاق » . ويقول فى الأدب الكبير إنه «لم يجد الأولين غادروا شيئاً يجد واصف بليغ فى صفته له مقالاً لم يسبقوه إليه . . . وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور ، فيها مواضع لصغار الفطن ، مشتقة من جسام حكم الأولين

(١) ابن المقفع . دار الفكر العربى — الطبعة الثانية ص ١٦٧ — ١٦٨

وقولهم . ومن ذلك بعض ما أنا كاتب فى كتابى هذا من أبواب الأدب التى يحتاج إليها الناس . »

وفى الأدبين حكم شتى وأمثال مختلفة لا يربط بينها رابط ، وهى من مصادر مختلفة : فارسية ويونانية وإسلامية وغير ذلك .

أما « الأدب الكبير » فهو ما سماه صاحب الفهرست باسم « مافر حسيس » وقد ذهب الأستاذان هوفمان Hoffman وجوستى Justi إلى أن اسمه محرف عن « مه فراجو شناس » أى الأدب العالى والكبير . وفيه مقدمة تدور حول فضل الأقدمين على العلم وشروط درسه والغرض من هذا الكتاب ، ثم فيه قسمان : قسم فى آداب السلطان أى فى السلطان ومصاحبه وما يجمل بكل منهما من الخلال ، وقسم فى آداب الاجتماع أى فى علاقة الناس بعضهم مع بعض . أما المقدمة فمفادها أن خير ما يفعله الإنسان هو الاقتداء بالأقدمين والأخذ من علمهم والنظر فى كتبهم لأنه « لم يبق فى جليل الأمر ولا صغيره لقائل بعدهم مقال » ، وأنه لا بد لطالب الأدب من معرفة الأصول والفصول . « فأصل الأمر فى الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدى الفريضة . . . وأصل الأمر فى صلاح الجسد ألا تحمل عليه من المآكل والمشارب والباه إلا خفافاً ... وأصل الأمر فى البأس والشجاعة ألا تحدث نفسك بالإدبار وأصحابك مقبلون على عدوهم . . . وأصل الأمر فى الجود ألا تضن بالحقوق على أهلها . . . وأصل الأمر فى الكلام أن تسلم من السقط بالتحفظ . . . وأصل الأمر فى المعيشة ألا تنى عن طلب الحلال ، وأن تُحسن التقدير لما تفيد وما تنفق . . . » تلك هى الأصول فإن زاد عليها المرء إصابة الفصل فذلك أفضل كالتفقه فى الدين والعبادة ، وعلم جميع منافع الجسد ومضاره والانتفاع بذلك ، وأن يكون المرء أول حامل فى الحرب وآخر منصرف من غير تضييع الحذر ، وأن يزيد المرء ذا الحق على حقه ويطول على من لا حق له ، وأن يأتى فى الكلام ببارع الصواب ، ثم الرفق فى المعيشة

واللطف فى الطلب والعلم بوجوه المطالب . . »

وأما القسم الأول من « الأدب الكبير » فمفاده أن صاحب الإمارة ينبغى له أن يخصص معظم أوقاته بأعمالها ، وأن يجتنب المدح لأن « قابل المدح كمادح نفسه ، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده ، فإن الراد له محمود ، والقابل له معيب » . وعلى السلطان أن يجعل فى بطانته أهل الدين والمروءة ، وأن لا يعنى بغير المهم ، وأن لا يفرط فى الغضب ولا يتسرع فى الرضى وأن يحذر مما لم يبن على حزم من الأعمال ، وأن يتوثق من حسن رأى أعوانه ، وأن يحذر من الغضب والكذب والبخل وكثرة الحلف ، وأن يمعن فى تفقد أمر رعيته ، وأن يأخذ بالدين والبر والمروءة . . . وعلى مصاحب السلطان أن لا يغتر باستئناسه ولايكثر له التمليق، ولا ينصرف إلى الإدلال عليه والاستزراء له . . . إلى غير ذلك مما يؤلف دستوراً فى ما يتعلق بالراعى والرعية وفى ما يجب عمله من الجهتين .

وأما القسم الثانى من « الأدب الكبير » ففى معاملة الناس وفى آداب المعاشرة، ومفاد ذلك أن المرء يجب أن يحذر من انتحال رأى غيره ، وأن يجعل الكلام فى موضعه، ويتجنب الهزل والادعاء، ويعامل عدوه بالعدل وصديقه بالرضى ، ويحسن اختيار الصديق ، إلى غير ذلك من الحض على الفضيلة واجتناب الرذيلة.

وأما « الأدب الصغير » فقسمان: قسم لتقديم الموضوع وقسم آخر للموضوع نفسه . أما المقدمة « فيذكر الكاتب فيها حاجة العقل إلى الأدب ، وتأثير هذا الأدب فى إنماء العقل فيقول ، ويحسن التعبير فيما يقول : « فكما أن الحبة فى الأرض لا تقدر على أن تخلع يبسها ، وتظهر قوتها ، وتطلع فوق الأرض بزهرتها ونضرتها ، إلا بمعونة الماء الذى يغور إليها فى مستودعها ، فيذهب عنها أذى اليبس والموت ، ويحدث لها بإذن الله القوة والحياة ، فكذلك سليقة العقل مكنونة فى مغرزها من القلب ، لا قوة لها ولا منفعة عندها ، حتى يعتملها الأدب الذى

هو نماؤها وحياتها ولقاحها . » ثم قال : « إن الناس لا يبتدعون هذا الأدب لأنهم يروونه ويحكونه ، فإن أحدهم ، وإن أحسن وأبلغ ، ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص ، وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً ، فنظمه قلائد وسموطاً وأكاليل ، ووضع كل فص موضعه ، وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك حسناً . » فالأدباء بهذا — فى نظره — ليسوا أكثر من صاغة الذهب والفضة ، صنعوا فيها ما يعجب الناس من الحلى والآنية ، « وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة ، وسلكت سبلا جعلها الله ذللاً ، فصار ذلك شفاء وطعاماً وشراباً منسوباً إليها ، مذكوراً به أمرها وصنعتها . »

ثم ذكر الكاتب أن العقل لا يمكنه أن يستفيد من الأدب الذى يتغذى به إلا بستة أشياء :

أولها إيثارك الأدب بالمحبة على كل شىء سواه .

وثانيها مبالغتك فى طلب الأدب مدفوعاً بهذا الإيثار .

وثالثها تثبتك فى تخير الأدب « فكم من طالب رشد وجده والغىَّ معاً فاصطفى منهما الذى منه هرب ، والغى الذى إليه سعى . »

ورابعها ثقتك بأنَّ الذى استقر عليه رأيك سيعود عليك بالخير والنفع .

وخامسُها حفظك لهذا الذى وقع عليه اختيارك ، لأن الإنسان موكل به الغفلة والنسيان .

وآخرها وضْعك هذا كله موضعه اللائق به .

ثم قال الكاتب : « وبنا إلى هذا كله حاجة شديدة . . . ولسنا إلى ما يمسك أرماقنا من المطعم والمشرب ، بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذى به تفاوت العقول . وليس غذاء الطعام بأسرع فى نبات الجسد من غذاء الأدب فى نبات العقل[1] . »

---

(١) طالع « ابن المقفع » لعبد اللطيف حمزة — ص ١٦٨ — ١٧٠

وأما مضمونُ الأدب الصغير فعالم من السمو والروْعة التفكيرية ، ومداره على تصرف العاقل فى الحياة وعلى تهذيب نفسه لإحسان ذلك التصرف . ولكى يهذب نفسه عليه أن يسلك طريقين : طريق اقتلاع المساوئ بمحاسبة النفس ومخاصمتها والقضاء عليها والإثابة والتنكيل بها ، وطريق اكتساب المحاسن بتفقد محاسن الناس والسعى فى الاقتداء بهم ، والاستشارة ، واختيار الأصحاب من ذوى الفضل والعلم والدين والأخلاق، لأن هؤلاء وحدهم يستطيعون أن يساعدوا على إصلاح النفس. وهنالك أمور مختلفة تساعد على حسن التصرف منها : « أن لا يشغل العاقل شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه ، وساعة يحاسبُ فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه ، وينصحونه فى أمره ، وساعة يخلى فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على الساعات الأخر . » ومن الأمور التى تساعد على حسن التصرف أن يقيس العاقل الناس بنفسه ، وأن يجعل الهوى خاضعاً للعقل .

ويعرض صاحب الكتاب للسلطان فيجمل خصاله فى أربع ويقول : « على الوالى أربع خصال هى أعمدة السلطان وأركانه التى بها يقوم وعليها يثبت : الاجتهاد فى التخير ، والمبالغة فى التقدم ، والتعهد الشديد ، والجزاء العتيد . » وهو يؤثر أهل المعرفة بالسلطان ويقول : « أحق الناس بالسلطان أهل المعرفة ، وأحقهم بالتدبير العلماء ، وأحقهم بالفضل أعودهم على الناس بفضله ، وأحقهم بالعلم أحسنهم تأديباً . . . » وهكذا يلتحق المؤلف بالفارابى صاحب «المدينة الفاضلة» ، وهكذا يوضح مراتب الناس فى تلك المدينة فى كلام مفصل غاية فى العمق .

ويعرض المؤلف للدين ويقيم موازنة بينه وبين الرأى ويقول : « فصل ما بين الدين والرأى أن الدين يسلم بالإيمان ، وأن الرأى يثبت بالخصومة . فمن جعل الدين خصومة فقد جعل الدين رأياً . ومن جعل الرأى ديناً ، فقد صار شارعاً . ومن كان هو يشرع لنفسه الدين ، فلا دين له . »

ومن جملة الأمور التى يعرض لها صاحب « الأدب الصغير » الدلائل على معرفة الله وسبب الإيمان فيقول : « مما يدل على معرفة الله وسبب الإيمان أن يوكل بالغيب لكل ظاهر من الدنيا صغير أو كبير عيناً : فهو يصرفه ويحركه . فمن كان معتبراً بالجليل من ذلك ، فلينظر إلى السماء فسيعلم أن لها ربا يجرى فلكها ويدبر أمرها ، ومن اعتبر بالصغير فلينظر إلى حبة الخردل فسيعرف أن لها مدبراً ينبتها ويزكيها ويقدر لها أقواتها من الأرض والماء ، يوقت له زمان نباتها وزمان تهشمها ، وأمر النبوة والأحلام وما يحدث فى أنفس الناس من حيث لا يعلمون ، ثم يظهر منهم بالقول والفعل ، ثم اجتماع العلماء والجهال والمهتدين والضلال على ذكر الله وتعظيمه ، واجتماع من شك فى الله وكذب به على الإقرار بأنهم أنشئوا حديثاً ، ومعرفتهم أنهم لم يحدثوا أنفسهم . فكل ذلك يهدى إلى الله ويدل على الذى كانت منه هذه الأمور ، مع ما يزيد ذلك يقيناً عند المؤمنين بأن الله حق كبير ولا يقدر أحد على أن يوقن أنه باطل ».

وهذا ، كما لا يخفى ، من صميم الفلسفة الأرسططاليسية المصبوغة بالصبغة المسيحية والإسلامية . وهذه بعض البراهين على وجود الله : السببية والحدوث ، ونظام الوجود ، واجتماع رأى الناس على ذلك منذ بدء الخليقة إلى اليوم ، وغير ذلك مما عبر عنه المؤلف أو لمح إليه .

ومن ثم يتضح لنا أن الأدبين الكبير والصغير من ذخائر الحكمة البشرية ، وأن الحكمة فيهما قائمة على أساس عقلى لا يخلو من صبغة دينية ، وأنها من ثم ذات نزعة فلسفية عميقة المرمى ، بعيدة الأغوار ، وأنها عميقة العلم بالنفس البشرية ونزعاتها المختلفة ، وبالسياسة البشرية والاجتماع البشرى ، وأنها ذات نزعة مثالية ، وذات نزعة تشاؤمية ؛ جاء فى « الأدب الصغير » ما يلى : « الناس — إلا قليلاً ممن عصم الله — مدخولون فى أمورهم : فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير

سليم من الاستخفاف ، والأمين منهم غير متحفظ من إتيان الخيانة ، والصدوق غير محترس من حديث الكذبة ، وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة ، والحازم منهم غير تارك لتوقع الدوائر . . . » وكم فى هذا الكلام من تشاؤم !

وأسلوب الأدبين هو الأسلوب الخطابى التعليمى ، هو أسلوب المعلم الحكيم، أسلوب المشترع الذى يسن للوجود قوانين ودساتير ، أسلوب فلاسفة الأخلاق الذين يتكلمون من عل ، ويعالجون مشاكل البشر فى خبرة وحنكة وبصيرة .

* أبو العتاهية (٧٤٨ – ٨٢٥ م) هو الشاعر الذى لبس الصوف وتزهد ، والذى فلسف الزهد ودعا إليه بإلحاح وبرهان ، ومما قاله فى ذلك :

اسلكْ بُنَيَّ مَناهِجَ السَّادَاتِ وَتَخَلَّقَنَّ بِأَشْرَفِ العَادَاتِ

يتجلى لنا أبو العتاهية من زهدياته رجلاً ميالاً إلى الزّهد ، عاكفاً عليه بكلّ جوارحه . لقد عرف من الحياة حلوها ومرّها ، ورأى أنّ طيباتها لا تدوم . وقد خبر القلوب فوجدها قلوباً تتقلب مع كل حال ، وتدور مع كلّ هوًى ، وخبر الناس فوجدهم أتباع منافعهم ورغباتهم ، فصدف عن الدّنيا وترّهاتها ، وراح فى صُفوف البشر رسول خير ولسان موعظة وعبرة ، بل راح فيلسوف زُهد يعمل ويقول . وربما كان فى قوله بعض الأثرة ، ذلك أنه فى عصر الفسق ، وزمان الانحطاط الأخلاقى ، أراد أن يكون صوتاً ناشزاً يلفت أنظار رجال الدين وأصحاب الترمت ويبنى من وراء قوله قصراً من الشهرة وحسن النظر . ثم إن أبا العتاهية قد تردّد أحياناً بين الغزل والزهد، وكان ذا شخصية ضعيفة متذبذبة لضعف فى إرادته وخور فى همته . وعلى كلّ حال فقد نصب نفسه للهداية وكان عمله جليلاً .

أظهر أبو العتاهية فى زهدّياته ازدراءً للحياة جمًّا، وقد لفها بغشاء كالح السواد من شأنه أن يبعث على اليأس والقنوط ، إلاّ أنه على تشاؤمه ، قد

أسدى إلى الناس نصحاً ذا قيمة حقيقية ، ووجه كلامه إلى عقولهم مقدّما لها البراهين والحجج ، غير مكتف بأساليب الأقدمين الاختيارية ، فهو فى عصر فلسفة وتفكير ، وهو فى عصر علم وجدل ، وهو فى عصر نصب فيه للعقل عرش رفيع . وقد استقى أفكاره من الكتب الدينية ونظريات الفلاسفة كما استقاها من عالم التجربة والاختبار . وراح يدعو إلى القناعة لأنّ الدنيا دار فناء . والآخرة خير منها ، فما يُبنى يُبنى للخراب ، ومن يُولد يولد للموت ، وما يُجمع يُجمع للتفريق ، وما يُعتنى به من أمر الجسد آخرته الفناء ، وما يُضحك لا يُضحك إلاّ ليبكى ، فعلى الإنسان أن يعيش كمن سيموت ، يكتفى بالضرورى ويتسلح بالتقوى ، وهكذا يتأهب للآخرة ، ويذخر لنفسه أجرا عند الله .

وأسلوب أبى العتاهية فى زهدّياته هو أسلوبه فى أكثر شعره ، هو سهولة وسلاسة وانسجام ، وهو عذوبة وموسيقى ساحرة ، وهو تفجرٌ وطبعية ، وهو تدفق شاعرية ، وانطلاق خيال ، وليس هنالك من غثاثة أو برودة أو جفاف كما نجد ذلك فى الشعر التعليمى عامة ، وكما كان يُنتظر من شاعر كتب الكثير فى هذا الباب . وقد مزج أبو العتاهية زهده بشىء من العاطفة العميقة التى تدغدغ أوتار النفس وتترك فى عالمها صدى بعيدا . وهكذا كان أبو العتاهية مجددا فى باب الزّهد إذ فلسفه وصاغه بقالب سهل ممتع .

* أبو تمّام (٧٩٦ – ٨٤٣ م) هو شاعر المعانى وقد امتاز بذكاء حادّ نادر ، كلف بتقصى المعانى والنزول إلى أعماقها ، وقد صادفت هذه النزعة فيه موافقةً من حالة عصره العقلية وتشجيعاً ؛ فقد فُرغ من نقل طائفة حسنة من كتب الفلسفة والمنطق ، عن اليونانية ، فأقبل على استيعابها بشغف ، وأفاد منها ثقافة لم يكن لأدباء العرب عهد بمثلها من قبل ؛ وقد ظهرت آثار تلك الثقافة فى شعره ، فكثرت المعانى الجديدة ، والأدلة العقلية ، وائتمام المنطق فى التفكير

والتأليف. بل أصبح التوفر على المعانى من أميز صفات أبى تمام، فى عامة أبواب شعره ؛ فهو قلما ينقاد فى نظمه إلى إيحاءات عابرة ، أو يرضى بما تأتى به من خواطر بديهية . ومن ثم امتازت أفكاره بالابتكار وبعد مطارح النظر ، لأنها ثمرة تأملات عميقة أحاطت بالمعانى من جميع نواحيها ، وبلغت أقاصيها .

وقلما يكتفى أبو تمام بعرض المعنى الطريف عرضاً سهلاً كما يتبدى له ، بل يذهب فى تعليله المنطقى حتى يبديه راسخاً وطيداً ، بريئاً من كل تقلقل . وذلك ظاهر كل الظهور فى كثير من آرائه وحكمه التى يعبر عنها غالباً فى بيتين ، يعرض فى الأول خاطرته ، ويأتى فى الثانى بمثال أو برهان يدعمها به ، فيقول مثلاً :

وَإذا أَرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتاح لها لِسانَ حَسُودِ
لَوْلا اشْتِعالُ النَّارِ فِيما جاوَرَتْ ما كانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ[1] العُودِ

ولأبى تمام جملة من مثل هذه الخواطر الطريفة المحكمة ، المعروفة بالحكم ، وهى جارية على الألسنة ، يتمثل بها فى مختلف الأحوال وتقوم دليلاً جلياً على قوى الشاعر العقلية ، وجمال معانيه .

ومن آيات براعته المعنوية أيضاً ، طائفة من النظرات فى النفس والحياة ، والإرشادات الأدبية لا يقتصر فيها أبو تمام على الخبرة البديهية ، بل يعمد إلى الثقافات العريقة المنقولة ، يقتبسها ، ولا يرسل آراءه إلا بعد اختبار مختمر ، وتأمل شخصى طويل. ومجمل آرائه : أن العقل فخر رفيع ، لا يتسنى إلا لأفراد قليلين :

ولَيْسَ يُجَلِّى الكَرْبَ رُمْحٌ مُسَدَّدٌ إذا هُوَ لَمْ يُؤْنَسْ بِرَأْيٍ مُسَدَّدِ[2]

---

(١) عرف العود : رائحته الطيبة .

(٢) يجلى : يذهب . لم يؤنس : لم يصحب . الرأى المسدد : المصيب .

ومع هذا فالدهر خوّان يسعد الجاهل ، ويشقى الحكيم ؛ ولكن ليس على الحكيم أن يبتئس ، بل عليه أن يصبر على معاكسات الدهر ، ويبدى إزاءها شدة وتفوقاً وحلماً ، فهذا أعظم سلاح وزاد ؛ والحكيم لا يكفيه عقله ، بل يلزمه المال للقيام بمقتضيات شخصيته ، والمال يجتنى بالسفر الذى يكسب فوق ذلك اتساع الخبرة ، وتجديد الشخصية :

الصَّبرُ كاسٍ وَبَطْنُ الـكَفِّ عارِيَةٌ ... وَالعَقْلُ عارٍ إذا لَمْ يُكْسَ بِالنَّشَبِ [1] ؟

إلا أنه ليس لذلك كله قيمة بالنظر إلى زوال الدنيا .

وعلى الجملة ، فالشاعر ، فى أبى تمام ، هو ذلك المتأمل المتبصر ، الكثير الاحتفال بالمعانى والكثير العناية بها ، إلى حد يتعقد معه الشعر وتفسد موسيقاه . فهو يتكلم إلى العقل المتبصر قبل كل شىء ، ويطبع بسمة عقله جميع عناصر شعره حتى العاطفة والخيال .

ولسنا ننكر ما لأبى تمام من الساقط فى أفكاره ، فإنه كان ينحطّ فى بعض منها إلى دركات لا تليق بعبقريته ؛ ولعل ذلك متأت عن أنه لم يستطع الاحتفاظ دائماً بالتوازن فى تفكيره ، أو أنه لم يتمكن من استساغة جميع ما وعاه من الثقافات والعلوم التى ألمّ بها . إلا أن اعتماده التفكير فى شعره ، وما أتاه من معان جميلة لا تكاد تحصى ، كل ذلك جعل له محلا فريداً بين شعراء عصره . فكان رجل الطليعة الذى شق الطريق ومهدها لمن سيأتى بعده من شعراء المعانى .

* ابن دريد (٨٣٧ — ٩٣٣ م) من علماء القرن التاسع وله قصيدة مشهورة تقع فى نحو مئتين وثلاثين بيتاً وتعرف « بمقصورة ابن دريد » ، وقد وصف فيها حاله ورحيله إلى فارس وضمنها شتى الفنون الشعرية من مدح وفخر

---

(١) النشب : المال .

وشكوى ووصف وأمثال وحكم . ونحن لا يهمنا هنا إلا الأمثال والحكم . وهذه خلاصتها وهذا رأينا فيها .

ابن دريد رجل يقدّم فى قصيدته بعض الحقائق البسيطة التى يعرفها جميع الناس والتى لا تخرج عن نطاق الحياة العادية . فهو يرى أن الناس لا يميلون إلا إلى القوى وإلى السخى فيجمل فكرته وخبرته فى قوله :

مَنْ ظَلَمَ الناس تحامَوْا ظُلْمَهُ وعزّ فيهم جانباهُ واُحتمى
وهم لِمَن لان لهم جانِبُهُ أظْلَمُ من حيّاتِ أنباثِ السّفا [1]

وهو يتنكر لليأس فى الأعمال وللكبرياء فى معاملة الناس ، وهو يرى أن الإنسان بما يعمل لا بما يقتنى :

وللفتى من مالهِ ما قدّمت يَداه قبلُ موتهِ لا ما اُقْتَنَى

وهو يرى أيضاً أن آفة العقل الهوى ، وأن خير ما يتركه الإنسان بعد الحياة حديث حسن :

وإنّما المرء حديثٌ بَعْدَهُ فكُنْ حديثاً حسناً لِمَن وَعَى

وهكذا يمضى ابن دريد فى مقصورته مفصلا آراءه فى غير روعة شعرية ، وفى غير عمق وابتكار شديد .

* أبو الطيب المتنبى (٩١٥ — ٩٥٦ م) شاعر سيف الدولة ورجل القوة والطموح . احتك بالقرامطة فاتخذ عنهم حب الثورة والميل إلى انتفاضة العنفوان ، واحتك بالأمراء وذوى الأمر والسلطان فذاق مرارة الخيبة ، وسعى وراء العظمة

---

(١) أنباث السفا أى التراب .

والمراتب العالية فعرف حطمة الطموح ، وحسده الناس وآلموه ، فكان صدره بركاناً ينفث حمماً ونيراناً ، وقال شعراً فكان شعره ترجمان قلبه الطموح وقلبه الساخط ، وكان حافلا بالحكم والأمثال . وقد جمع تلك الحكم والأمثال الصاحب بن عباد لفخر الدولة البويهى ، ونشرها «زهدى يكن» بعد أن شرحها وضبط ألفاظها وعلق عليها ، وهى كثيرة نجمل الكلام فيها فنقول :

لم يكن المتنبي فيلسوفاً بمعنى الكلمة الصحيح ، إذ ليس له آراء شاملة فى أصل العالم أو الحياة أو الأخلاق ، يقوم عليها نظام من الفكر متصل ، متماسك ؛ وإنما له خطرات فى الحياة والأحياء ، منثورة هنا وهناك لا يجمع بينها سوى نفس الشاعر والجو الذى يسبح فيه ويتشربه . وهو لا يتوفر على تعليل هذه الخطرات ودعمها منطقياً بتؤدة وإسهاب شأن الفلاسفة ، ولكنه شديد الاعتقاد بها ، شديد الإثبات لها ، وكثيراً ما يدعمها بصورة مؤثرة ، أو دليل موجز يقران صحتها فى نظره ، بقوة جازمة . وهو كثيراً ما يأتى بحكمه وأمثاله لإيضاح فكرة أو للبرهان عليها .

أما مصدر حكمة المتنبي فهو قبل كل شيء نفسه وتجاربه وإلهامه ، لا دراسة الفلسفة ، أو التأملات فى ما وراء الطبيعة ، ووراء الزمان والمكان ، وإن كان قد استقى أحياناً بعض حكمه مما وصل إليه من نظريات اليونان وآرائهم ، ومما أطلعته عليه ثقافته .

ولما كانت نفسية الشاعر مفطورة على القوة والاعتداد والطموح ، كانت فلسفته تعظم القوة وتقدسها ، وتضحى بكل صغير ضعيف فى سبيل كل كبير جبار ، مترفع عن الدنايا . ولما لم يصادف طموحه سوى المعاكسات والإخفاق أغرق فى التشاؤم ، والنقمة على الزمان ، لأنه لم يسعفه ، وعلى الناس لأنهم لم يحققوا أمله ، فملوكهم لا يستحقون الملك ، والشعب يرضى بالملاهى والبؤس ، ويقيم على الذل .

إن فلسفة المتنبي ، على الإجمال ، فلسفة الأمل الطامح المؤمن بالقوة ، والأمل الخائب المثقل بالنقمة والثورة والتشاؤم .

قلما تعرض المتنبي لنظريات فى مبدأ العالم ومنتهاه ، وإنما صرف همه إلى الإنسان فى حياته وأخلاقه وعواطفه وعلاقته بالجماعة التى يعيش فيها ، فجال فكره بين الحياة والموت ، والقوة والضعف ، واللذة والألم ، والنيل والحرمان ، وما إلى ذلك ، وتناولت حكمه سنن الحياة وصروفها ، مهملة مصادرها ومصايرها .

الحياة : الحياة فى نظر المتنبي مسرح من مسارح تنازع البقاء ، بل هى ساحة حرب ، وميدان جهاد ، لا يفتأ الناس فيه متجالدين من غير ما رحمة ولا هوادة ، فلا يثبت غير القوى ، ولا يفلح سوى الشجاع الذى لا يهاب :

إنّما أنفُسُ الأنيسِ سِباعٌ   يَتفارَسْنَ جَهْرَةً واُغتيالاَ (١)
مَن أطاقَ التِماسَ شيء غِلاباً   واُغتِصاباً لمْ يلتَمِسْهُ سُؤالاَ (٢)

والحياة دار فناء لا يدوم فيها نعيم ولا تثبت فيها حال ، والناس فيها أفواج إثر أفواج ، بين الوجود والفناء :

يُدَفِّنُ بعضُنا بعضاً ، وتمشى   أواخِرُنا على هامِ الأوالى

ولكن الحياة ، على ما فيها من سرعة زوال ، وقصر يعتوره الاضطراب والأوصاب ، محببة إلى كل إنسان يتعلق بها تعلقاً وثيقاً :

ولَذِيذُ الحياةِ أنفَسُ فى النفْـــسِ وأشهى مِن أنْ يُمَلَّ وأحلى

---

(١) الأنيس : هنا الأنس ضد الوحش . السباع ج سبع وهو كل حيوان مفترس . الاغتيال : أخذ الإنسان من حيث لا يدرى .

(٢) غلاباً : أى مغالبة .

وإذا الشيْخُ قالَ أُفٍّ فما مَلَّ حَياةً ، وإنَّما الضَّعفَ مَلاَّ

أما الموت فهو أمر لا بد منه، محتوم على كل حى ، لأن الحياة من كسب الزمان ، والزمان لا شك مطالب بها ؛ والأجسام من تراب الأرض ، وسوف تستعيد الأرض ما أخذ منها ، ولذلك ينبغى ألا نجزع أمام الموت،وأن نستقبله كأمر محتوم :

نحنُ بَنو المَوْتى فَمَا بالُنا نَعافُ ما لا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ
تَبخَلُ أَيْدينا بِأَرْواحِنا على زَمانٍ هُنَّ مِنْ كَسْبِهِ
فهٰذِهِ الأَرْواحُ مِن جَوِّهِ وهٰذِهِ الأَجسامُ مِن تُرْبِهِ

الدين : يظهر أن المتنبي أهمل الجانب الدينى من الحياة إهمالاً لا يكاد يكون تاما ، وظل ، بالنظر إلى الخلود ، فى شبه شك أو لا معرفة . وقد كان ، فى العموم ، واهى العقيدة الدينية ، يلم بكثير من النحل الشائعة فى عصره، من غير أن يعتقد بواحدة منها ، وإنما يأتى على ذكر بعضها فى شعره كالعلوية ، والمانوية أصحاب الثنوية ، والمجوس ، مجاراة لمألوف سائر الشعراء أو مجاراة للممدوح . ولكنا ، وإن ضعفت عقيدته الدينية وكثر استخفافه بالدين ، لا يمكننا أن نرميه بالإلحاد والزندقة، فإنّا نلمس فيه حمية دينية، ونزعة إسلامية ، ولا سيما فى عهد سيف الدولة ، بسبب حروب العرب مع الروم ، ونسمعه أحياناً يصرح بأنه لا يخضع لمخلوق مطلقاً ، إنما خضوعه لله ، الذى له التصرف المطلق فى الكون ، وهو الملحوظ فى كل فعل وحركة . ولكن ذلك لا ينفى قلة التفات المتنبي إلى الدين .

الزمان : إن الزمان — أو الدهر — عدو الأحرار وكرام النفوس ، فى نظر المتنبي . هو الذى يقسم الحظوظ والمواهب على الناس ، ولكنه مطبوع على

الجور ، يمنع التقاء العقل والحظ ، وينتهك أبداً حرمة العقل فلا ينيله ما يحق له من التكريم والسلطان :

وَما الجَمْعُ بَينَ الماء والنَّارِ فى يَدى بأصعَبَ مِنْ أن أجمَعَ الجَدَّ والفَهْما (١)

وقد بلغ المتنبي من حنقه على الزمان أن اعتبره غريماً حيا يطارده ويعاكسه

أما الناس — والمتنبي ينظر خصوصاً إلى أهل زمانه — فهم فى هوة من الصغارة والهوان ، مجرّدون من كل خلة حسنة ، ولا يستأهلون إلا الاحتقار :

أَذُمُّ إلى هــذا الزَّمانِ أُهَيلَهُ فأَعْلَمُهم فَدْمٌ وأحزَمُهم وَغْدُ (٢)

وأَكرَمُهُم كَلْبٌ وأَبصَرُهُم عَمٍ وأَسْهدُهُمْ فَهْدٌ وأَشجَعُهُمْ قِرْدُ (٣)

* * *

إذا ما النَّاسُ جَرَّبَهم لَبيبٌ فإنّى قــد أ كَلْتُهُمْ وذاقا (٤)

فلَمْ أرَ وُدَّهُم إلاّ خِداعاً وَلم أرَ دينَهمْ إلّا نِفاقا

وهذه الأخلاق التى فطر عليها الناس ، ثابتة فيهم ، لا يستطيعون عنها تحولا

تصرف اللبيب : تلك صورة الكون التى تمثلها المتنبي . وهو يرى أن العاقل من أقبل على الدنيا كما هى ، مهملا ملاهى اللذة ، مسلحاً نفسه بالقوة ، فلم يرتح إلى صديق — فإنه ليس من صديق — بل عوّل على نفسه ، وطلب المجد فى أسمى أشكاله :

---

(١) الجد : الحظ .

(٢) الفدم : قليل الفهم . الوغد : الأحمق .

(٣) عم : أعمى . أسهدهم : أيقظهم . فهد : يشبه به فى كثرة النوم .

(٤) يقول : أنا أعرف المجربين بأحوال الناس ، فإن كان غيرى يعد ذائقاً لهم فإنى قد كررت ذوقهم حتى صرت آكلا .

إذا غامَرْتَ في شَرَفٍ مَرُومٍ فَلا تَقْنَعْ بِما دُونَ النُّجُومِ (١)

مضحياً فى سبيله أجل التضحيات ، غير متهيب شيئاً حتى الدم والموت ، لأن النكوص والجبن ذلة واستكانة وحرمان ، فى حياة تمضى ولا تعود .

وعلى العاقل أن يحذر الناس ، فلا يتكل على أحد ، ولا يشتكى إلى أحد ، ولا يرحم أحداً ! وعليه أن يتصلب فلا تغره دمعة باك أو بشاشة مبتسم ، عالماً أنه ينال من الدنيا بالهول ما لا ينال بالرفق :

وَمَنْ عَرَفَ الأيَّامَ مَعْرِفَتى بِها وبالنَّاسِ، رَوَّى رُمحَهُ غيرَ راحِمِ

تلك سنة الحياة : ازدراء للناس والزمان ، وطموح إلى مجد رفيع ، لا تنيله إلا القوة أو الحيلة ، وهى نوع من القوة . والقوة أصل الأخلاق والفضائل ، ومحور المحامد والمناقب ، وعليها أن تنقلب بطولة ، لا يشوبها أدنى ضعف ، لأنه :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهوانُ عليهِ ما لِجرْحٍ بِميِّتٍ إيلامُ (٢)

وإذا تعود المرء الهوان ، لم ينل من الدهر غير الهوان إذ « لكل امرىء من دهره ما تعودا » . وقد يكون الموت نتيجة هذه البطولة ! وما همّ ، فالحياة البسيطة غير جديرة بالعيش ، والموت لا بد منه ، فلتحفل الحياة بالشجاعة والقوة ، ولتزه نهايتها بالشرف ولو دامياً !

ليس أبو الطيب من ذوى الحيرة والتردد فى آرائه ، شأن أبى العلاء ، فهو يجزم فى خواطره حتى الغريبة منها ، كأنه يسن شريعة ؛ ويعتمد على فكره اعتماداً شديداً مطلقاً .

---

(١) غامرت : دخلت فى الغمرات وهى المهالك . وقوله : فى شرف ، أى فى طلب شرف .

(٢) يقول : من كان هيناً فى نفسه لا يستصعب ورود الهوان عليه فهو كالميت الذى لا يتألم بالجراحة .

وقد بلغ فى نظم آرائه أرقى غاية فى التعبير ، ففاق شعراء الحكم جميعاً فى الجمع بين القوة والإيجاز والإحكام ، فجاءت أبياته عذبة بليغة ، تنبض حياة وقوة ، وتشمل آفاقاً شاسعة ومعرفة عميقة للنفس الإنسانية ، لقنته إياها الآلام والأسفار والتجارب الواسعة ، فاستطاع — كما قال الشيخ إبراهيم اليازجى — أن « ينطق بألسنة الحدثان ويتكلم بخاطر كل إنسان » . زد على ذلك تعاليم أخلاقية سامية تلقن الترفع عن الدنايا ، والصبو أبداً إلى كل رفيع ، والإقدام الجرىء الذى يحطم كل صعوبة ولا يحجم عن عظيم . وهكذا جاءت حكم المتنبى ، فى قسم كبير منها ، قيما إنسانية رفيعة تسمو إلى مرتبة الشعر الخالد .

إلا أن هنالك بعض الآراء التى ينقصها الاتزان . فقد كان الشاعر ، إبان شبابه ، متهوراً فى حب الثورة والدمار ، وطلب الآمال الخيالية التى لا قرار لها ولا سبيل إلى تحقيقها : ثم هبطت ثورته أثناء كهولته . إلا أن بعض آرائه اتسم إذ ذاك بلون من التشاؤم كثيف ، يزيده ضعف العقيدة الدينية ظلاما .

ولكن الخواطر التفتت إلى الجانب الصالح من حكم المتنبى دون الباقى ، فسار على الألسنة ، فى كل عصر وكل بلد ، وقد وجد الناس فيه الفكرة الصادقة العميقة الجميلة فى التعبير البليغ الموجز المحكم .

ولقد كانت مواطن كثيرة من حكميات المتنبى نواة لفلسفة أبى العلاء ، أكسبها المعرى اتساعاً وإسهاباً ، ولكنه أفقدها روعة أصلها .

وهنالك طائفة كبيرة من حكم المتنبى وأمثاله تناولت موضوعات شتى وعبرت عن آراء مختلفة يصعب تبويبها ، وهى ترجع فى أكثرها ، من قريب أو بعيد ، إلى ما قدمنا ، وإليك بعضها :

صبراً بنى إسحٰق عَنْهُ تَكرُّماً إنَّ العظيمَ على العَظيمِ صَبُورُ [١]

* * *

فَمَوْتِى فِى الوَغَى أَرَبِى لِأَنِّى رأيتُ العيشَ فى أَربِ النُّفوسِ

* * *

لو كانَ سُكْناىَ فيه منقصةً لم يكنِ الدُّرُّ ساكنَ الصَّدفِ [٢]

* * *

غيْرَ اختيارٍ قبلْتُ برَّكَ لى والجُوعُ يُرضى الأُسُودَ بالجِيَفِ

* * *

يَفْدِى بَنيكَ عُبَيْدَ اللهِ حاسِدُهم بِجَبْهَةِ العَيْرِ يُفْدَى حافِرُ الفَرَسِ [٣]

* * *

وأَصْبَحَ شِعْرِى منهما فى مكانهِ وفى عُنُقِ الحسناءِ يُسْتَحْسَنُ العِقْدُ [٤]

* * *

ومَنْ يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

* * *

---

(١) قاله فى رثاء محمد بن إسحق التنوخى .

(٢) قاله فى سجنه بحمص .

(٣) قاله فى عبيد الله بن خراسان .

(٤) من قصيدة مدح بها الحسين بن على الهمذانى .

كُلُّ حلمٍ أتَى بغيرِ اقْتدارٍ حجّةٌ لاجئٌ إلَيْها اللِّئامُ

* * *

لا يُعْجِبَنَّ مَضِيماً حسنُ بزّتهِ وَهَلْ تروقُ دفيناً جودَةُ الكفَنِ

* * *

وإذا أتَتْك مَذمّتي من ناقصٍ فهي الشهادَةُ لي بأنّي كامِلُ

* * *

والهَمُّ يَخْتَرِمُ الجَسِيمَ نحافَةً ويُشِيبُ ناصِيَةَ الصَّبيِّ ويُهْرِمُ

* * *

أفْعَالُ من تَلِدُ الكِرَامُ كريمةٌ وفَعَالُ من تلدُ الأعاجِمُ أعْجَمُ

* * *

وكُلُّ شَجَاعَةٍ في المرء تُغْنِي ولا مِثلُ الشجاعَةِ في الحكيم

* * *

وكم مِنْ عائِبٍ قولاً صحيحاً وآفَتُهُ مِن الفَهْمِ السَّقيمِ

* * *

وإطراقُ طَرْفِ العَيْنِ لَيس بنافِعٍ إذا كانَ طَرْفُ القَلْبِ ليس بمطرِقِ

وهكذا إذا تصفحنا ديوان المتنبي نجده حافلاً بمثل هذه الحكم والأمثال التي

ترافق جميع أطوار الحياة وأحداثها ، والتي توضح خفاياها ومكنوناتها ، والتي تصدى لكل نفس وكل قلب فى غمرة الوجود . وهكذا كانت حكمة المتنبي لكل زمان وكل مكان ، ولكل حالة من الحالات . يتمثل بها كل إنسان ويجد فيها تعزية فى الحزن ، وقوة فى المصائب ، وهمة لركوب المخاطر ،وهكذا كانت حكمة المتنبي من رفيع الشعر الإنسانى الخالد .

* أبو العلاء المعرى (٩٧٣ – ١٠٥٨م) هو الشاعر الكفيف الذى انكفأ فى ذاته على الوجود يتفهمه ، ويحلله من خلال ظلمة عماه . وإن له فى شعره حكماً كثيرة ونظريات واسعة النطاق .

نفس كبيرة فى جسم هزيل ، وقلب لا يسعه العالم تحت ثياب الضعة ، وبصيرة نافذة وراء ستار العمى ، وعقل بحاث فى قيود السجن الجسدى يحاول أن يستجلى الحقائق ويقف على مكنونات الوجود ، ذلك كان أبو العلاء المعرى فى ديوانه الشعرى ، فهو رجل تفكير وتقليد وتركيب . وهو إن مدح أو رثى أو فخر أو وصف ، متوكئ على معانى من سبقه ، جاد فى تصيد صورهم وتركيبها تركيا علائياً فيه تضخيم وتجسيم وتمثيل وواقعية حسية . وأبو العلاء فى شعره متشائم ، إن فكر فى حقيقة الحياة والموت اندفع مبالغاً فى وصف الزوال وذكر المآل ، وإن فكر فى عاهاته ولؤم الناس تعالى متطاولاً فى لهجة هدارة تنبعث فيها شخصية قوية ، لا تقبل ردا لحكم أو اعتراضاً على برهان .

وقد حاول أبو العلاء أن يخص فلسفة الحياة بديوان ضخم يدعى « اللزوميات » واللزوميات ، أو لزوم ما لا يلزم ، أو اللزوم ، ديوان شعر كبير مرتب على حروف المعجم ، يذكر كل حرف بوجوهه الأربعة[1] من ضم وفتح وكسر

---

(١) قال المعرى فى آخر مقدمة الكتاب : « وهذا حين أبدأ بترتيب النظم وهو مائة وثلاثة عشر فصلا ، لكل حرف أربعة فصول . وهى على حسب حالات الروى من ضم وفتح وكسر وسكون ،

وسكون ؛ وهذا الديوان يحتوي على نحو أحد عشر ألف بيت وكله فلسفة واعتبار ونقد للحياة . وسمى كذلك لأن صاحبه التزم قبل الروى حرفاً إذا غير لم يكن مخلا بالنظم . وقد نظمه الشاعر بعد عودته من بغداد ، إذ اكتملت شخصيته .

وطبعت اللزوميات بالهند سنة ١٣٠٣ هـ ، وبمصر سنة ١٨٩١ — ١٨٩٥ م .

اللزوميات تمثل حياة عقل أبي العلاء ووجدانه وخلقه تمثيلا صادقاً . وهي تحتوي على آراء الرجل التي كان يلقى بها إلى طالبي العلم . فقد كان المعري شيخ مدرسة يأتي إليه طلاب العلم من كل فج وصوب ، فكان يعالج قضاياهم ويهذب نفوسهم وأخلاقهم ، ويعلمهم نظرياً وعملياً ، ومصدر نظرياته عقله ، ومختبر علمياته جسده النحيل الذي قسا عليه . وهكذا كان المعري لمريديه وقاصدي فضله واعظاً باللسان والمثل ، يطبق علمه على عمله .

وإننا لانستطيع أن نعد آراء أبي العلاء فلسفة بالمعنى الحصري ، ولا أن نعد صاحبها فيلسوفاً بالمعنى الدقيق ، لأنه لم يكن صاحب مذهب منظم كأرسطو وابن سينا ، ولم يبتكر شيئاً في الفلسفة يعد رأياً له خاصا أو مذهباً خاصا . فإن آراءه مأخوذة من أصول قديمة اختارها وآمن بها ، أو تأملات في الحياة ترجع إلى ما لقي من تجارب وأحداث انتهت عنده كما انتهت عند غيره إلى أفكار عامة . ويذهب الأستاذ «مارون عبود» إلى أن كتاب اللزوميات هو كتاب المذهب الفاطمي ، وأن أبا العلاء صور فيه للناس شخصية الحاكم [1] وخصاله من حيث لا يدرون ، وأيد

وأما الألف وحدها فلها فصل واحد لا تكون إلا ساكنة . وربما جئت في الفصل بالقطعة الواحدة أو القطعتين ليكون قضاء لحق التأليف . وبالله التوفيق » .

والذي ينعم النظر في فصول الكتاب يرى أن الأوزان في كل فصل مرتبة على ترتيب الدوائر والأبحر عند العروضيين : فالبحر الطويل في الفصل مقدم على غيره ، والمتقارب مؤخر عن غيره ، والأبحر بينهما على ترتيبها . وليس معنى هذا أن المؤلف استوفى في كل فصل الأبحر الخمسة عشر ، بل المعنى أن ما يوجد من الأوزان في فصل يلتزم فيه الترتيب .

(١) الحاكم بأمر الله (٩٨٥ — ١٠٢٠ م / ٣٧٥ — ٤١٠ هـ) من خلفاء الدولة الفاطمية

فيه مذهبا ، ووضع فى شعره طريقة ، فكانت آراؤه نوعين : نوعاً مستمداً من الاختبار الإنسانى ، وهو ما يطلق عليه اسم الفلسفة العامة ؛ ونوعاً يتجه اتجاهاً معلوماً ويعبر أو يترجم عن مذهب بعينه هو مذهب الفاطميين [١] . أما التناقض الذى يوجد فى آراء أبى العلاء فما هو ، فى نظر الأستاذ مارون عبود ، إلا سخرية أو « تقية فى عصر كانت فيه كلمة « علم الأوائل » تقضى على الرجل .

إلا أننا نرى أن الأخذ بالتقية لا يمكنه أن يفسر التناقض والحيرة اللذين يحفل بهما كتاب المعرى ؛ ونرى أن أبا العلاء عقل كبير لم يملك زمام الذاكرة والعاطفة بالتعمق فى ما سمع من الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة ، فأخذ من كل مذهب بطرف وتأثر تأثراً عميقاً بالفاطمية ، وكان فى الحقيقة كما قيل « لمام فلسفة يجمعها من هنا وهناك » . وقد تناول بنوع خاص كليات المتنبى الفلسفية وبسطها فكان بذلك « مكبراً فوتوغرافياً » لصور شاعر سيف الدولة ؛ كما تناول آراء المعتزلة والفاطمية وغيرهما ، وزاد على ذلك اختباراته ، ونصب نفسه معلماً ينشر الآراء سواء أكانت صائبة أم فاسدة ، مغرقاً فى الحيرة والتردد ، جادا تارة وهازلاً ساخراً تارة أخرى ، تؤثر العاطفة المتألمة فى عقله فتطبعه بطابع التشاؤم . وإليك خلاصة آراء المعرى :

١ ـ العقل : أعلى أبو العلاء شأن العقل متبعاً فى ذلك رجال الفكر فى عصره ، فكان العقل عنده الأمام الفرد والنبى الذى يرشد إلى الحقيقة :

بمصر . كان جواداً سفاكاً للدماء . وكان يشتغل بعلوم الفلسفة ، وينظر فى النجوم ، وقد اتخذ بيتاً فى المقطم ينقطع فيه عن الناس . ودعا إلى تأليهه ، ففتح سجلا تكتب فيه أسماء المؤمنين به ، فاكتتب من أهل القاهرة سبعة عشر ألفاً كلهم يخشون بطشه . وفى سيرته متناقضات كثيرة : يأمر بالشيء ثم يعاقب عليه ، ويعلى مرتبة الوزير ثم يقتله . . .

(١) قال الأستاذ مارون عبود : « الفاطمية مذهب فلسفى ، وقد أصبح أبو العلاء فيما أثبت وقرر فى اللزوميات شيخها الأعظم وإمامها الباقى ، فهو لم يدع شيئاً يعنى « المستجيب » إلى هذه الدعوة إلا ذكره له وفنده . وهو لا يقرر القضية مرة ومرتين بل يعالجها فى كل أبواب كتابه » . ويعتقد الأستاذ أن أبا العلاء لم يسافر إلى بغداد إلا لأجل التمكن من مذهبه .

كذبَ النَّاسُ لا إمامَ سِوَى العقـ ـلِ مُشِيرًا فِى صُبحهِ والمساءِ

* * *

أيُّها الغِرُّ إنْ خُصِصْتَ بعقْلٍ فاسْأَلَنهُ فـكلُّ عقلٍ نبيٌّ

وقد أراد أبو العلاء أن يحكم العقل فى كل شىء ، ولكنه اضطرب فى ذلك التحكيم ولم يكن له من الفلسفة العميقة والعلم الراسخ ما يوضح له معالم طريقه فتقلب كثيراً حتى وصل مرّة إلى أن الإنسان لا يرى الحقيقة بعد أن أثبت أن العقل نبي :

أَمَّا اليقِينُ فلا يقينَ ، وإنَّما أَقصى اجتِهادِى أن أَظنَّ وأَحدُسا

٢ ـ الطبيعيات : قال المعرى مع علماء القدم بالعناصر الأربعة : النار والماء والتراب والهواء ، واضطرب فى مسألة قدم العالم ، فأثبت القدم حيناً وأنكره حيناً آخر :

وليسَ اعتقِادى خُلودَ النُّجومِ ولا مذْهبِى قِدَمَ العَالِمِ

والمعرى يرى أن عالم الكواكب يعمل فى العالم السفلى بكل ما فيه من إنسان وحيوان وجماد ، وأنه لا بد من إعظام الكواكب لأن الله عظمها .

وهو يرى أن الجسم وعاء دنس للنفس ، وأن النفس تحب الموت ولا تخافه وهى تطهر بترفعها عن الجسد . وقد اتخذ المعرى فى ذلك آراء أفلاطونية وغير أفلاطونية ولكنه لم يحسن تمحيصها . ودان بالجبرية وقال : إن الإنسان يولد مكرهاً ، ويهرم مكرهاً ، ويعيش مكرهاً ، ويقيم مكرهاً ، ويسير كذلك مكرهاً

ما باختِيارِىَ مِيلادِى ولا هرَمِى ولا حياتِى ، فهَلْ لى بعْدُ تخْييرُ ؟

---

(١) حدس : ظن .

ولا إقامةَ إلَّا عَن يدَىْ قدَرٍ ولا مَسيرَ إذا لم يُقضَ تيسيرُ

فكان الإنسان من ثم مكرهاً على الفساد لأنه من طبعه فاسد . وفى كل ذلك تشاؤم مطبق استولى على الشاعر من جراء مصائبه ونكباته ومن جراء عدم تفهمه لنواميس الطبيعة الحق .

٣ ـ الماورائيات : إن لأبى العلاء ، فى كل ما يخرج عن حدود المحسوس ، موقفاً « لا أدرياً » يكثر فيه القلق والاضطراب والتناقض . فهو يؤمن بوجود الله ولكنه يعترف بجهله لحقيقته تعالى :

أثبتُ لى خالقاً حكيماً ولستُ مِن معشر نُفاةِ

وهو يثبت كمالات الله ، وخلقه للعالم ؛ وتراه يمارس بعض فرائض الدين، ويذكر الدين أحياناً بخير ، ثم تراه يصارح بجحود الدين ويعتقد أن أرباب الدين لا يدينون بحسب العقل أى لا يحكمون العقل فى دينهم ، بل يرى أحياناً أخرى أن جميع الديانات متساوية فى الضلالة. فهو ينكر الديانات وهو متعبد وهو دين ، لا بل تجد فى كلامه أجمل الحث على اقتناء الفضيلة والتقوى والعبادة . ومن اضطرابه وتناقضه يتضح لنا ضلاله فى تهجمه على الدين .

والمعرى يؤمن بالبعث وإن اضطرب فى إيمانه بعض الاضطراب .

٤ ـ الأدبيات أو الفلسفة العملية : أدبيات أبى العلاء مبنية على التشاؤم ، فالرجل شديد التشاؤم ، ساخط على الدنيا ، متبرم بالعالم ، لا يرى فيه إلا شرًّا مستطيراً لا سبيل إلى دفعه ؛ والدنيا فى نظره أفرغت الشر على كل ما فيها سواء أكان حيواناً أم إنساناً :

قد فاضتْ الدُّنيا بأَدْناسِها على برَاياها وأَجناسِها

وكلُّ حىٍّ فوقها ظالمٌ وما بها أظلَمُ مِن ناسِها

والإنسان فى نظره يصنع الشر طبعاً والخير تكلفاً ، لا بل يرى فى مكان آخر أن الخير مفتقد :

مفْعولُ خَيرِكَ فى الأفعالِ مُفتَقدٌ كما تعذّرَ فى الأسماء فَعلُولُ

ومع ذلك نرى أبا العلاء يكثر من ذكر الخير فى شعره ويعدد صفاته ، وإذا الخير محبب إلى النفس يجد فيه العاقل لذته وسعادته ؛ إلا أن اللذة التى يجدها الإنسان فى الخير ليست غاية الفعل ولا هى مبدأ من مبادئه ، لأنها تنقلب إلى ألم ؛ فالخير يجب أن يطلب لذاته لا لنفعه ؛ والخير لا يكون خيراً حقيقياً إلا إذا كان خاضعاً لحكم العقل .

والمعرى يسىء الظن بالمرأة ، فهى فى نفسه مصدر كل شر ، إنها غادرة متهالكة على لذاتها ، وهى حبل غى بها يضيع الشرف التليد . وهو يطلب حجاب المرأة وعدم انصرافها إلى التعلم .

أما المجتمع فيراه المعرى فاسداً يسود فيه الهوى والجهل والغرور والرثاء ، ولا يرى أرباب السلطة إلا أهل المطامع .

وإذا كان الأفراد والمجتمع مغمورين بالفساد ، فلم يبق للإنسان إلا الانعزال وممارسة الفضيلة .

قال المعرى فى مقدمة اللزوميات : « قد تكلفت فى هذا الكتاب ثلاث كلف : الأولى أنه ينتظم حروف المعجم عن آخرها ؛ والثانية أن يجىء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك ؛ والثالثة أنه لزم مع كل روى فيه شىء لا يلزم من ياء أو تاء أو غير ذلك من الحروف » . فهذا شعر حدد موضوعه واختير له نظام فى القوافى وترتيب على الحروف وحركاتها . وليس هو شعراً كسائر الشعر ، لا بل هو بعيد عن نتاج الخيال الشعرى ؛ يظهر فى مبناه التكلف الشديد من غرابة فى اللفظ ، وجناس كثير ، والتزام ما لا يلزم فى القوافى ، واستعمال

ألفاظ العلوم المختلفة من عروض ونحو وفقه وما إلى ذلك .

* أبو الفتح البستى (١٠١٠ م) ولد فى بست بالقرب من سجستان ، وولى كتابة ديوانها ، ثم انتقل إلى بخارى ومات فيها . له ديوان شعر أشهر ما فيه النونية فى الحكم وهى تقع فى نحو ستين بيتاً وعليها مدار كلامنا .

قصيدة البستى نصائح وإرشادات تساعد الإنسان على حسن التصرف فى الحياة وعلى تفهم الأمور كما هى . فالشاعر يوجه كلامه فيها إلى العقل بهدوء واتزان ، ويحاول الإقناع عن طريق الرصانة والاتزان فى الرأى ومواجهة الحقائق والواقع . وكلامه كله موسوم بسمة الحقيقة من غير ما مغالاة ولا انتفاضات عصبية . فالخير هو خير ما يطلب الإنسان على وجه الأرض ، وهو خير وسيلة لاكتساب الرضى وللحصول على الراحة والاطمئنان . وكل ما يربحه الإنسان فى غير محض الخير هو فى الحقيقة خسران :

زيادَةُ المرء فى دنياه نُقْصانُ ورِبْحُهُ غيرَ محضِ الخيرِ خُسْرانُ

وذلك أن كل شىء على الأرض خاتمته الخراب ما عدا الخير الذى هو العمران الوحيد والبناء الذى لا تزعزعه الليالى . والخير يتجلى بالإحسان إلى الناس ومد يد الندى والمساعدة . وذلك أن الإنسان من طبيعته ميال إلى حب ذاته وحب المال ، فالإحسان هو القبض على أقوى نزعات الإنسان ، وهو التسلط عليه فى غير استفزاز ولا إثارة :

أحسِنْ إلى الناسِ تَسْتَعْبِدْ قلوبَهُمُ فطالَما اُسْتعبَدَ الإنسانَ إحسانُ
مَنْ جادَ بالمالِ مالَ الناسُ قاطبةً إليه والمالُ للإنسانِ فَتَّانُ

ثم إن المسالمة خير الوسائل لتجنب غوائل الناس ، ولكن المسالمة غير

الاستنامة إلى الأشرار ، تلك الاستنامة التى يتخذها الشر طريقاً :

من استنامَ إلى الأَشرار نامَ وفى قميصِهِ مِنْهُمُ صِلٌّ وثُعْبانُ

ثم إن البستى يرفع عرشاً للعقل ، وإذا هو أهم مدبر فى الحياة ، وإذا العقل يحتل فى فلسفته مرتبة عالية جداً فى عهد السيطرة العقلية :

حسبُ الفتى عقلُه خلاًّ يعاشِرُهُ إذا تحاماهُ إخوانٌ وخـلّانُ
مَنْ كان للعقل سُلْطانٌ عليه غدًا وما على نفسِهِ للحِرْصِ سُلْطانُ

ثم يصل الشاعر إلى النفس فينبه إلى أن الإنسان إنما هو إنسان بنفسه لا بجسمه ، ومن ثم فعلى المرء أن يستكمل فضائلها :

أقْبِل على النفسِ فاسْتكمِلْ فضائلها فأنتَ بالنفس لا بالجسم إنسانُ

ثم أخيراً يصل الشاعر إلى الله تعالى ويظهر أنه الركن والمعتصم :

واشدُدْ يديكَ بحبلِ اللهِ معتصِماً فإنّه الركن إن خانَتْكَ أركانُ

وهكذا يبسط البستى النظرات الصائبة ، ويقيم فلسفته على حقيقة طبيعة البشر ، وعلى حقيقة طبيعة الدنيا ، وعلى حقيقة وجود الله تعالى . وهكذا يظهر البستى حنكة وعمق معرفة ، وهكذا تبدو لنا نزعته العقلية الروحانية .

* * *

تلك كانت الحكمة فى العهد العباسى : لقد اصطبغت بصبغة المدنية الجديدة والثقافة الجديدة ، وانطلقت قوية المعنى وقوية المبنى فى قسم كبير منها. وقد كانت ثمرة الخبرة والمعرفة ، ثمرة العقل الاختبارى والعقل التفكيرى ، ولهذا كانت الحكمة العباسية شديدة التأثير ، شديدة الانطلاق والانتشار ، ولهذا كان لها

قيمة إنسانية حق ، وكانت الكنز الذى اغترف منه الناس على ممر العصور .

أما فى عهد الانحطاط فقد كانت الحكمة صدى لحكمة بنى العباس كما كان الأمر فى أدب الأندلس . وذلك أن عهد الانحطاط فى الأدب عهد انهيار فكرى وفنى ، فكان الأديب فيه شديد التلفت إلى من سبقه ، شديد التقليد والزخرفة اللفظية والبديعية ، شديد التلهى بالقشور والظواهر الفنية ؛ وكذلك كان الأديب الأندلسى صادفاً عن التعمق فى التحليل ، والانفلات فى أجواء الفكر ، صادفاً عن التغلغل إلى الأغوار ، يهمه أن يقلد الأديب العباسى ، وأن يلوك أفكاره ، ويردد بعض حكمه من غير ما ابتكار ولا تجديد . وقد اشتهر فى الحكمة والمثل من أدباء الانحطاط زين الدين عمر بن الوردى .

* ابن الوردى (١٢٨٩ — ١٣٤٨ م) ولد فى معرة النعمان وقد نشأ مكبا على علوم اللغة والأدب فحصل منها الشىء الكثير ، وراح يكتب فى التاريخ والنحو وينظم الشعر ، وله ديوان شعرى أشهر ما فيه قصيدة حكمية عرفت « بلامية ابن الوردى » ، وهى تقع فى سبعة وسبعين بيتاً .

وحكمة ابن الوردى نثر فى قالب موزون ، وهى تخلو من كل روعة أدبية ، وإن لم تخل من معرفة عميقة لأخلاق الناس وطبائعهم ، ولأحوال الدنيا وأحداثها. وهذه الحكمة دستور أخلاقى يتضمن آداب النفس وآداب المعاملة ، وهو قائم على نظرة جدية إلى حقيقة الأشياء من غير ما تمويه ولا تزييف . فالحياة قصيرة مهما طالت ، والموت أمر محتوم على كل إنسان ، فسبيل العاقل أن يلزم جانب الرصانة ،وينظر إلى عاقبة كل شىء ، متذرعاً بالتقوى والزهد فى أباطيل الأرض، والاعتماد على النفس ، وأن يتسلح بالمداراة والقناعة ، فلا تبطره نعمة ولا تغره ابتسامة ؛ وسبيله أيضاً أن ينمى عناصر الشخصية فيه بتحصيل العلم وتوسيع نطاق المعرفة وتقويم اللسان وما إلى ذلك . وابن الوردى من الذين يتعشقون الآفاق ويدعون إلى الأسفار ولا يقيمون حدا للوطنية ، لأن وطن الإنسان كل أرض

تطؤها قدماه ، وكل فضاء يستظل سماءه ، ولأن أهل الإنسان كل جماعة تقوم بينها وبينه عاطفة مودة وإخاء .

وشعر ابن الوردى ظاهر الجمود، ضعيف التسلسل، بعيد عن كل انطلاق فى عالم الخيال ، يسير فى سلاسة وسهولة عجيبتين . وإن فيه من الأبيات ما يدور على ألسنة الناس، وما أصبح نموذجاً من نماذج الحكمة البشرية التى تعبر عن الحقائق العميقة فى ظاهر من البساطة يروق ويعجب .

وهكذا كانت حكمة ابن الوردى حكمة اتزان ورصانة ، موسومة بالسمة الدينية ، ومصطبغة بصبغة التفاؤل والواقعية . قال :

اعْتَزل ذِكْرَ الاغَانى والغَزَلْ　　وقُلِ الفَصْل وجَانِبْ مَن هزَلْ
وَدَع الذكرَ لأَيَّام الصِّبا　　فلأَيام الصِّبا نجمٌ أَفَلْ
إن أهْنا عيشة قَضَّيْتَها　　ذَهَبتْ لذَّاتُها والإثمُ حَلّ

* * *

كُتب الموتُ على الخَلْق فكم　　فلّ من جَمْعٍ ، وأفْنى مِنْ دُوَل
أيْن نمرودُ وكَنْعانُ وَمَن　　رَفَع الأهرامَ مَن يَسْمَعْ يَخَلْ ؟
أين عادٌ أين فرعونُ وَمَنْ　　مَلَكَ الأرضَ وولَّى وَعَزل ؟
أيْنَ مَن سَادوا وشَادوا وَ بنَوْا؟　　هَلَكَ الكلُّ ولم تُغْنِ القُلَل
أين أربابُ الحِجا أَهْلُ النُّهَى　　أيْن أهلُ العِلم والقومُ الأُوَل ؟

* * *

أىْ بُنىَّ اسْمعْ وَصَاياَ جَمَعت　　حِكَماً خصَّت بها خَيْر المِلل
اطْلُبِ العلمَ ولا تكسَلْ ، فما　　أبْعَد الخيرَ على أهْلِ الكسل

واهجُر النَّوم وحصِّــلْه فَمَن يَعْرِف المطلوبَ يَحْقِرْ ما بَذَل
واتْرُكِ الدنيا فَمِنْ عَادَاتِها تَخْفِضُ العالى وتُعْلِي مَن سَفَل
عيشــةُ الزاهدِ فى تحصيلها عيشَةُ الجاهد بل هــذَا أزل
كم جَهولٍ وهْو مُثْرٍ مكثِرٌ وحكيمٍ ماتَ منهــا بالعِلَلْ
كم شُجاعٍ لم ينَلْ منها الغِنى وَجَبانٍ نَالَ عاياتِ الأَملْ
فاتْرُكِ الحيلةَ فيهــا واتئِدْ إنما الحيلة فى تَرْكِ الحيل

* * *

لا تَقُلْ أَصلى وفَصْلى أبَدًا إنما أصْلُ الفَتى ما قَدْ حَصلْ
قد يَسُودُ المرء من غير أبٍ وبحُسْنِ السَّبْكِ قد يُنْفَى الزَّغلْ
وكذا الوردُ من الشوكِ وهَلْ ينبُتُ النَّرجس إلا مِنْ بَصَل؟
قِيمَة الإنســان ما يُحْسِنُهُ أَكثَرَ الإنسَانُ مِنْه أَو أَقلّ
بين تبذيرٍ وبُخْلٍ رُتبــةٌ وكِلاَ هَذين إنْ زاد قَتَل

* * *

حُبُّكَ الأوطانَ عجزٌ ظاهرٌ فاغتَرِب تَلْقَ عن الأَهْل بَدَل
فبِمُكْثِ المـاء يَبقَى آسِناً وَسُرَى البدرِ به البدْرُ اكتمل

الفصل الخامس

الحكمة والمثل فى الأدب الحديث

قال أنيس المقدسى :

« الحكمة الشعرية عبارة عن نظرة صائبة فى الحياة . وقد كانت قديماً ترسل فى أبيات أو مقطعات خلال بعض الأغراض الشعرية ، كالمديح أو الفخر أو الرثاء أو الزهد. وعن هذه الطريق وصلتنا حكم زهير وأبى العتاهية وأبى تمام والمتنبى والمعرى واليازجى وشوقى وسواهم . ويستثنى من ذلك بعض القصائد المخصصة للوعظ والإرشاد كقصيدة ابن الوردى « اعتزل ذكر الأغانى والغزل » أو التى هى مجموعة حكمية « كذات الأمثال » لأبى العتاهية وما جرى مجراهما .

وقد أجاد العرب فى كل ذلك . على أنك قلما ترى فى الشعر العربى القديم محاولات فنية يراد بها تصوير المجردات أو النظر فى مزاياها . فلم يعالجوا بتصميم فكرى أمثال هذه المواضيع : الحقيقة — السعادة — الفضيلة — القوة — الاشتراكية — الإنسانية — الروح — الخلود — المحبة . وليس لهم فيها ما للمحدثين ، وإن يكن هؤلاء لا يزالون فى ذلك بعيدين عما بلغه كبار أدباء الغرب .

ولا يراد بالشعر التأملى أن ينظر الشاعر نظر الفيلسوف فيحلل ويقيس ويستنتج بناء على مقدمات عقلية ، بل أن يدرك قيمة الأشياء ، ويصور لنا إدراكه تصويراً جميلاً يطربنا ويغذى خيالنا . على الشاعر المفكر أن يرفعنا إلى مستوى من الاختبار الروحى نتعالى فيه عن حياتنا العادية ، ونتحرر من قيودنا المادية .

والفرق الأساسى بين الشعر الحكمى القديم والشعر التأملى الحديث أن الأول خطرات سانحة تعرض للشاعر فى مناسبة من المناسبات ، أما الثانى فصور خيالية

ذات موضوع واحد يرسمها لنا الشاعر ملونة بألوان نفسه، فتجيء مشرقة بجمال الفن مالكة أسباب الإبهاج . »

* * *

وهكذا ترى أن الحكمة انتقلت فى الأدب الحديث إلى طور التأمل ، وأنها أصبحت أكثر اتساعاً ، وأرفع مقطعاً ، وأعمق أغواراً ، وأكثر معالجة لشؤون البشر وقضايا الاجتماع البشرى .

ونحن نفهم بالأدب الحديث هنا أدب النهضة منذ فجرها إلى يومنا هذا . وهو لا يخلو من قصائد حكمية ، كما لا يخلو من أمثال وحكم منثورة هنا وهناك فى مختلف أبوابه . وذلك أن اتجاهه التأملى لم يجر دفعة واحدة ، بل اتبع سنة النشوء والارتقاء ، وراح يتطور بفعل احتكاك الشرق بالغرب ، وبفعل الوعى القومى والاجتماعى ، وأخيراً بفعل الثقافات الجديدة ، ولا سيما الفلسفية منها والنزعات الاجتماعية الجديدة التى كان لها أثر شديد فى حياة الشعب وفى تفكيره وأدبه .

وإنه ليضيق بنا المجال لو أردنا تتبع الحكمة والمثل عند جميع شعراء النهضة ، ولهذا سنقتصر على ذكر البعض منهم، وعلى ذكر المناحى المختلفة التى تتراءى لنا فى مجالات التفكير التوجيهى . وأول شاعر نذكره هو الشيخ ناصيف اليازجى أحد أركان النهضة الحديثة ، وقد تتبع الشعراء السابقين فى جميع أبواب شعرهم وجعل للحكمة محلا واسعاً فى ديوانه ، فنظم فيها عدة قصائد ، ثم إنه نثرها فى مختلف أغراض قوله ، ولا سيما الرثاء منها ، كما نثرها فى مختلف مقاماته .

وإننا إذا أجلنا النظر فى شعره وجدناه يمعن فى التأمل بمصير الإنسان، ويقف طويلاً أمام الموت الذى يودى بكل شىء لا يرعى لأحد حرمة ، ثم يحرض على الزهد فى حطام الدنيا ويدعو إلى القناعة والابتعاد عن البخل والفحشاء ، كما يدعو إلى العلم ومصاحبة ذوى المعرفة وذوى النفوس الكبيرة . والشاعر

يجول فى الموضوعات الاجتماعية المختلفة ويخط للإنسان طريقاً من رشاد يستطيع ، إذا سار عليها ، أن يعيش شريفاً وأن يرضى نفسه ولا يتعرض لسهام اللؤم والشر .

واليازجى يرسل الحكمة محاولا أن يقلد فيها من سبقه ولا سيما المتنبى ، ولكن حكمته جامدة ، خالية من تلك الروح الوثابة التى تعصف فى شعر أبى الطيب . ويكتنف حكمة اليازجى جوّ من التشاؤم الذى يضغط على نفس القارىء ، كما يعتورها كثير من السطحية التى تجعله يقول ما يعرفه الناس، إلا فى ما ندر .

وأسلوب اليازجى هو أسلوب السهولة الرائعة ، والسلاسة العذبة ، والكلام البعيد عن كل صنعة وتعقيد ، ذاك الكلام الذى يجرى مع الطبع ، ويلج النفس والقلب سحراً وسلاماً ، فلا تضطرب له أعصاب ولا يختلج له فؤاد .

وإليك بعض ما قال :

لَعَمْرُكَ لَيسَ فَوْقَ الأَرْضِ بَاقٍ   وَلَا مِمَّا قَضَاهُ ٱللهُ وَاقِ
وَمَا لِلْمَرْءِ حَظٌّ غَيْرَ قُوتٍ   وَثَوْبٍ فَوْقَهُ عَقْدُ ٱلنِّطاقِ
وما لِلْمَيْتِ إلَّا قِيدُ باعٍ   ولوْ كانَتْ لهُ أرْضُ العِرَاقِ
وَكَمْ يَمْضِى ٱلفِرَاقُ بِلَا لِقاء   وَلٰكِنْ لَا لِقَاءَ بِلَا فِرَاقِ
أضَلُّ الناسِ فى الدُّنْيا سَبِيلًا   مُحِبٌّ باتَ مِنْها فى وِثاقِ
وَأَخْسَرُ مَا يَضِيعُ ٱلعمرُ فِيهِ   فُضُولُ ٱلمَالِ تُجْمَعُ لِلرِّفَاقِ
وَأَفْضَلُ مَا ٱشْتَغَلْتَ بهِ كِتَابٌ   جَلِيلٌ نَفْعُهُ حُلْوُ ٱلمَذَاقِ

وعِشْرَةُ حَاذِقٍ فَطِنٍ لَبِيبٍ　　يُفيدُكَ مِنْ مَعَانِيهِ ٱلدِّقَاقِ

مَضَى ذِكْرُ ٱلْمُلُوكِ بِكُلِّ عَصْرٍ　　وَذِكْرُ ٱلسُّوقَةِ ٱلْعُلَماء بَاقِ

وَكَمْ عِـلْمٍ جَنَى مَالًا وَجَاهاً　　وَكَمْ مَالٍ جَنَى حَرْبَ ٱلسِّباقِ

وما نَفْعُ الدَّراهمِ معْ جَهُولٍ　　يُباعُ بِدِرْهمٍ وقْتَ النِّفاقِ

إذا حُمِلَ النُّضَارُ عَلَى نِيـاقٍ　　فأَىُّ الفَخْرِ يُحْسَبُ لِلنِّياقِ

وأقْبَحُ ما يكُونُ غِنى بَخِيـل　　يَغصُّ وماؤُه مِلءُ الزِّقاقِ

إِذَا ملـكتْ يَدَاهُ القَلْسَ أَمْسَى　　رَقِيقاً لَيْسَ يطْمَعُ فى العِتاقِ

أَلا يا جامِعَ الأَمْوالِ هَلَّا　　جَمَعْتَ لَهـا زماناً لافتِرَاقِ

رأَيْتُكَ تَطْلُبُ الأبحارَ جَهْلًا　　وأَنْتَ تكادُ تَغرَقُ فى السَّواقى

إذَا أَحْرَزْتَ مالَ الأَرْضِ طُرًّا　　فما لَكَ فَوْقَ عيشِكَ مِنْ تَرَاقِ

أتأَ كلُ كلَّ يومٍ أَلفَ كَبشٍ　　وتَلْبَسُ أَلفَ طاقٍ فوْقَ طاقِ ؟

فُضُولُ المالِ ذَاهِبـةٌ جُزَافاً　　كَمَاء صُبَّ فى كأسٍ دِهاقٍ

يَفِيضُ سُدًى وقدْ يَسْطُو عَلَيْها　　فَيَنْقُصُ مِلأَها عِنْدَ انْدِفاقِ

مَضتْ دُولُ العلُومِ الزُّهْرِ قِدْماً　　وقامَتْ دوْلةُ الصُّفرِ الرِّقاقِ

وأَبْرَزَتِ الخـلاعَةُ مِعْصَمَيْها　　وباتَ الجَهْلُ ممْدُودَ الرِّواقِ

وأَصْبَحَ يَدَّعى بِالسَّبْقِ جهْلًا　　زعانِفُ يَعْجَزُونَ عنِ اللَّحاقِ

* * *

ولمحمود سامى البارودى حكم كثيرة أطلق فيها لسانه ولكنها بمجملها غير مبتكرة ، وقع عليها السابقون ، على حد قول بعض النقاد ، وصاغها البارودى صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم . وهى قريبة المأخذ ، قليلة التحليل ، بعيدة عن كل ما يسمى فلسفة أخلاقية . وللبارودى أبيات حكمية جرت مجرى الأمثال كقوله :

وَمَنْ تَكُنِ العَلْياءُ هِمَّةَ نفسِهِ فكلُّ الذى يَلْقاه فِيها مُحَبَّبُ

وقوله :

إذا ساءَ صُنْعُ المَرْءِ ساءَتْ حياتُهُ فما لِصُروفِ الدَّهرِ يُوسِعُها سَبَّا

ومثل اليازجى والبارودى عدد كبير من الذين أرسلوا الحكمة وضربوا المثل على سنة الأقدمين ، ولكن هنالك عدداً كبيراً آخر من الذين جروا فى طريق التأمل ، أو الذين حاولوا أن يجعلوا من حكمهم وأمثالهم دراسات أخلاقية ونصائح متسلسلة ، وكل ذلك فى سير مستقيم نحو النزعة التأملية الواعية . وقد عالجت الحكمة الحديثة موضوعات شتى أوحت بها البيئة الجديدة والنفسية الجديدة من مثل الإصلاح الذاتى والاجتماعى ، والوطنية ، والحرية ، وتطلب العلم والثقافة ، وتحرير المرأة من قيود الجهل والحجاب وما إلى ذلك ، ومن مثل المحبة التى تمد يدها إلى الفقير والضعيف ، والروح الاقتصادية التى تساعد على رفع شأن البلاد إلى غير ذلك من الموضوعات .

* * *

فهناك مثلاً خليل مطران شاعر العقل والفن ، وقد ترك لنا ديواناً صغيراً طبع بعد وفاته عنوانه « إلى الشباب » ، وهو مجموعة أراجيز فى أحدث وسائل النجاح من الأخلاق والآداب ، وهو دستور اجتماعى لأبناء العصر يحوى مبادئ

اجتماعية ، وأحمد الخصال ، ومهيئات النجاح ،وإرشادات فى المعاملة والاقتصاد، ووصايا عامة . أما المبادىء الاجتماعية فتدور حول الله وعظائم الخالق ، والعبادة وطرقها ، والوطن وتفديته ، والوطنية العاملة ، والحرية القومية ، والرابطة الأهلية ، والتعاون ، والتسامح بين عناصر الأمة ، وإكرام الفضلاء ، وخدمة النفس فى سبيل الوطن ، وتعهد النفس بالعلم والفضيلة ، والجسم بالنظافة والرياضة . . . ونزعة الشاعر فى هذا القسم من ديوانه نزعة عقلية مثالية ، نزعة اتزان وسمو ، نزعة هدوء سخى ، وأقواله ممسوحة بمسحة الثقافة العالية ، والاطلاع الواسع على أحدث ما وصلت إليه علوم النفس والتربية ، وهى ذات تطلع شمولى ونظر غيرىّ :

بِرُّ الفَتى بنَفْسِهِ   مَبَرَّةٌ بجنْسِهِ
ومَنْ أصابَ مَنْفَعَه   أصابها القومُ مَعَهْ
وكلُّ صُنْعٍ حَسَنِ   كرامَةٌ للوطَنِ

وأما أحمد الخصال عند مطران فالبر بالوالدين ، وتوقير الكبار ، ورعاية الجار ، وتجنب الهزل المفرط ، والتفادى من السباب ، وتخير البيئة والخلطاء ، وصلابة الرأى ولين الرد ، وحفظ الجميل ، والوفاء ، والتواضع ، والمصارحة ، وكتمان السر ، والحياء ، واجتناب البغضاء ، والعطف على الفقراء ، وما إلى ذلك. وكأنى بخليل مطران فى هذا القسم قد صور لنا أخلاقه الاجتماعية العالية التى أسرت جميع من عرفوه ، والتى جعلت منه الشخص المثالى الذى استعلى على أبناء عصره بتواضعه ولينه . قال مطران : « فى المعاودة وحدها تاريخ تكون شخصيتى ، فقد كان هنالك عاملان يفعلان فى نفسى : شدة الحساسية ومحاسبة النفس ، ومن هذين العاملين خلصت بتكوين نفسى على نمط خاص . » وقال إبراهيم

سليم النجار : « أبدع وأعجب ما فى شاعر القطرين أخلاقه وآدابه بلا جدال . وإنى لأقول بحق وصدق إننى لم أر لها مثيلاً ولم أسمع بمثلها . صحبت الخليل صحبة قريبة وثيقة أكثر من ربع قرن لم أسمع من فيه كلمة سوء بحق أحد من الناس أيا كان ، سواء أكان غريباً أو قريباً . ولم أره مرة فى حالة حدة أو غضب ، حتى لظننت أنه لا يعرف الغضب ، ولو حمل عليه ، ولم يأخذ أمراً من الأمور بالحدة ولو دفع إليها . . . وكانت نتيجة خلق الخليل الطيب الرضى أننى لم أعرف له فى مصر لا أقول عدوا أو خصما ، بل رجلا واحداً كارهاً مبغضاً » .

وأما مهيئات النجاح فى نظر الخليل فأداء الواجب ، والكد والمتابعة ، والتأمل والتعمل ، والتأنى ، والقيام بكل عمل فى حينه ، والصبر والحلم والكياسة ، والتثبت والتفطن ، والتنبه والحذر ، والشجاعة ومواجهة الحقيقة ، والمتاركة وما إلى ذلك . قال الخليل :

مَنْ يَتَملَّكْ طَبْعَهُ فى الخلْقِ يَشْرَعْ شَرْعَهُ
وبارعُ التصرُّفِ يَكْملُ بالتظرُّفِ
كُنْ كيِّسًا لا أحْمقا تكنْ عزيزاً مُتَّقَى
وتقضِ بالإينـاس ما شِئْتَ بينَ الناس

* * *

وأما إرشادات الخليل فى المعاملة والاقتصاد فقائمة على تضلعه من علم الاقتصاد ، وذلك أن الرجل كان من أركان النهضة الاقتصادية فى العالم المصرى ، وقد عين سكرتيراً معاوناً بالجمعية الزراعية المصرية وأظهر فى عمله من المهارة ما لفت إليه الأنظار . والجدير بالذكر أن شاعرنا حذق فن الاقتصاد والزراعة إلى حد بعيد ، حتى كلف وضع « البرنامج التأسيسى » لبنك مصر ، وحتى أسس

«النقابة الزراعية المصرية» . و« مما يذكر عن مطران أن المذكرات التى كان يضعها رجال المال والاقتصاد فى مصر كانت تعرض عليه ، كما كانت المذكرات القانونية التى يضعها رجال القانون ، وفيها مساس بشؤون المالية ، تعرض عليه للنظر فيها قبل طبعها وتقديمها للدوائر المختصة [١] » .

ومن ثم فقد نظر الخليل فى العرض والطلب وبين أن :

مَعْنى الحياةِ الحَرَكَهْ ما فى الجمودِ بَرَكَهْ

وراح يطرى الاستقامة فى المعاملة ويوضح أنها الطريق الثابت إلى الثروة المادية والمعنوية ، وأن العجرفة آفة التكسب وأنها غير الأنفة ؛ وراح يبين مكان المال من المجتمع :

ما قامَ فى الأعمالِ شَىءٌ بغَيْرِ مالِ

وراح يوضح معنى الغنى ، وبلاء الفقر ، وطرق الإبقاء على الثروة ، والفرق بين الإسراف والكرم ، وما إلى ذلك مما يدل على دقة فى النظر ، وعلى تفهم صحيح لحقيقة الاقتصاد .

* * *

وأما الوصايا العامة التى يوجهها الخليل إلى أبناء العصر ويجعلها نقطة الدائرة فهى أولاً التحقيق فى العلم ، وقد رأى ما يعتور علم أبناء هذا الزمان من التسرع ، فهو يطلب استتمام العلم لأن هذا الزمان يقهر من لا يمهر ، ويطلب كثرة العلم فى

(١) المقتطف سنة ١٩٣٩ ، مايو ص ٦١٥

غير توزع ولا سطحية . وهو يطلب التجويد فى الصناعة لأن النجح فى البراعة ، والبراعة رفيقة الإتقان والجلد ، ويطلب كذلك تحديد الهدف فى الحياة والعمل ويقول :

فِعْلٌ لِغَيْرِ غايَهْ مِنْ بَدْئِهِ غَوَايَهْ

وهو يرى أنه لا بد من مجاراة السجيةوالاعتماد على الشخصية ، كما أنه لا بد من الأخذ من علم الغير والرجوع به إلى السجية وذلك أن الاعتماد على النفس سر النجاح :

أفْلَحَ سَعْياً من عَلَى مَجْهودِهِ قَدْ عوَّلَا

والنظام فى نظر الخليل هو أيضاسر النجاح ، فعلى المرء أن ينظم عمله منذ الشروع فيه :

مُنْذُ الشُّروع فى عَمَلْ نَظِّمْهُ تدْرِكِ الأمَلْ

والمبدأ فى الحياة أصل الشرف والمناعة :

فإن تكُنْ ذا مَبْدَإ فأنت أشْرَفُ امرِئٍ

والثبات فى العمل عون الفلاح :

أفْلحَ ذو الثباتِ لا صاحبُ الهبَّات

والحرص على الوقت ضمانة ، كما أن الإبداء (Initiative) والذاتية والاجتهاد والإرادة والأمل والتفاؤل ، كل ذلك من أقوى وسائل العمل والنجاح فيه .

تلك بعض آراء خليل مطران التى نجدها فى كتابه « إلى الشباب » وإن له حكماً أخرى منثورة فىمختلف أبواب شعره ، ثار فيها على الظلم والاستبداد كما حارب بها وضع الشرق وقد عراه الضعف وخيم عليه الجهل .

وهنالك أحمد شوقى وقد عالج فى شعره سياسة البلاد وحالتها الاجتماعية، وأرسل فى ذلك الشعر آراءه حكماً مرصوصة حافلة بالروعة، أو أبياتاً جرت مجرى الأمثال .

أحب شوقى وطنه فى ماضيه فأحيا آثاره ، وأحبه فى حاضره فأيد سياسته ، وأحبه فى مستقبله فأراد أن يهيئه له كأفضل ما يكون التهيء ، فتناول بعض النواحى الاجتماعية ، وعالجها فى شعره . ومما عالجه التربية ، والمرأة ، والعمل :

١ ــ التربية : هى فى نظر الشاعر الركن الأساسى الذى يقوم عليه صرح الاستقلال والرقى ، لا بل هى العنصر الذى تنهار بدونه حياة الأمة الأدبية والعقلية

تَرْكُ النفوسِ بِلاَ عِلمٍ وَلا أَدَبٍ ... تَرْكُ المرِيضِ بِلا طِبٍّ ولا آسِ

فالعلم نور لا يحق حجبه ، بل هو كنز مشاع لا يجوز لأحد أن يستأثر به ، فتحريمه على النساء ظلم صارخ وجريمة كبرى تنالهن وتنال أبناءهن ، بل تنال الوطن نفسه :

وإذا النِّساء نشأْنَ فى أُمِّيَّةٍ ... رَضَعَ الرِّجالُ جهالَةً وخُمولا

ورسالة المعلم تكاد تكون سماوية ، وهى أشرف الأعمال وأجزلها نفعاً على البلاد :

أَعَلِمْتَ أَشْرَفَ أو أجلَّ من الذى ... يَبنى ويُنْشئُ أَنفساً وعُقولا

ولما كانت أساليب التعليم يومذاك بعيدة عن الروح العصرية حمل الشاعر حملة شريفة على تلك الأساليب البالية وما فيها من صعوبة تكره إلى الطالب حياة الدراسة .

وتحبيباً للعلم ، وغيرة على بث المبادىء الأخلاقية والاجتماعية فى النشء الطالع ، خص شوقى الأحداث بقسم وافر من أوائل منتوجاته الشعرية ، فنظم لهم أدعية مختلفة الموضوعات (دعاء الصباح ، دعاء النوم) وأناشيد وطنية ومدرسية تمتاز فى الغالب برشاقة الأوزان، وعذوبة الألفاظ ، وجمال الغنة الموسيقية .

٢ ــ المرأة : عاصر الشاعر ظهور الحركة النسائية فى مصر واتساع نطاقها على يد زعيمها قاسم أمين ، فترك الشعر التهذيبى ، وناصر الحركة الجديدة ، وقد عرض منها بنوع خاص لضرورة تعليم المرأة ، ثم لقضية الزواج والحجاب .

أما زواج الفتيات فيريده الشاعر حرا على غير إكراه ألبتة ، بعيداً عن أن يكون عقد بيع وشراء بين أهل الفتاة وأهل زوجها . ومما يستنكره شوقى خصوصاً فى هذا الباب تزويج الفتيات بالشيب :

المالُ حَلَّلَ كلَّ غيرِ مُحَلَّلٍ حتى زواجَ الشِّيبِ بالأبكارِ
ما زُوِّجَت تِلكَ الفَتَاةُ و إنّما بيعَ الصِّبا والُحسنُ بالدِّينارِ

أما «الحجاب» فقد حافظ عليه الشاعر فى أسرته ، ولكنه لم يكن ليطمئن إليه ، فإن هو اضطر زمناً إلى القول بضرورته ــ كما فعل فى قصيدته «صداح» ــ فما ذاك إلا إرضاء لتقاليد البلاط ، حتى إذا تخلص من رسمياته نقض قصيدته بغيرها :

قلْ لِلرِّجالِ : طَغَى الأسيرْ طَيرُ الحِجالِ متى يَطيرْ (١)
أوهى جَناحَيــهِ الحديـــدُ وحَزَّ ساقَيهِ الحريرْ

وقد ألمع فى كثير من قصائده إلى ضرورة التخلص من نير الحجاب :

فقُلْ لِلجانِحِينَ إلى حِجابٍ أَتُحْجَبُ عَنْ صَنيعِ اللهِ نَفْسُ
إذا لم يَستُرِ الأدَبَ الغَوانى فلا يُغْنى الحريرُ ولا الدِّمَقْسُ (٢)

فعقيدته الأساسية هى أن للمرأة حق الظهور على مسرح المجتمع من غير تقنع ، فإن لم تكن التربية الصالحة معقل الفتاة الحصين كان الحجاب لها سجناً لا حصناً.

---

(١) الحجال : جمع حجلة وهى خدر المرأة ، وكنى بطير الحجال عن المرأة إشارة إلى قصيدته الأولى « صداح » التى كان قد كنى فيها عن المرأة ببلبل جميل سجن خوفاً عليه من شباك الصيادين .

(٢) الدمقس : الحرير الأبيض .

٣ ــ العمل : وأراد شوقى الإهابة بمواطنيه إلى العمل فى سبيل الرقى والعمران وأراد أن يكون عملهم فى وئام تام . ومن أشهر قصائده فى ذلك « مملكة النحل » .

* * *

وهنالك معروف الرصافى شاعر الأيتام والبؤساء، وقد فتح عينيه فى بيئة فى كل ناحية من نواحى الحياة، فشق عليه أن تعيش أمته متخلفة عن مواكب الحضارة والرقى ، وراح يستنهض الهمم ويدعو إلى العلم قائلاً :

إذا ما الجهلُ خيَّم فى بلادٍ رأيتَ أُسُودَها مُسِخَتْ قرودَا

* * *

فــكُلُّ بلادٍ جادَهَا العِلْمُ أمرعَتْ رباها وصارَتْ تُنْبتُ العِزَّ لا العُشْبا

وهو يدعو إلى التشبه بالماضين تشبهاً جدياً لأنه :

وما يُجدى افتخارُك بالأوالِى إذا لم تَفْتَخِرْ فخرًا جَدِيدا
أرى مُسْتَقْبَلَ الأيَّامِ أوْلى بِمَطْمَحِ مَنْ يُحاولُ أنْ يَسُودَا
فما بَلَغَ المقاصِدَ غيرُ ساعٍ يُرَدِّدُ فِى غَدٍ نظرًا سَدِيدًا
وهَل إن كانَ حاضِرُنا شقِيًّا نَسُودُ بكَوْنِ ما ضِينا سَعِيدًا ؟

والعلم الذى يحث على طلبه، لا يريده إلا إذا كانت الأخلاق رداء له :

وما العِلْمُ إلاّ النُّور يجلُو دُجَى العَمى ولـكِنْ تزوغُ العَيْنُ عِنْدَ انكِسارِهِ
فما فاسِدُ الأَخْلاقِ بِالْعِلْمِ مُفْلِحًا وإنْ كانَ بَحْرًا زَاخِرًا من بِحَارِهِ

ويقول :

أرَى العِلْمَ كالمِرْآةِ يَصْدأُ وَجْهُهُ ... وليسَ سِوى حُسْنِ الخلائقِ مِنْ جَالِ
أخو العِلْمِ لا يَغْلُو على سوء خُلْقِهِ ... وذو الجَهْلِ إنْ أخلاقُهُ حسُنَتْ غالِ
ولو وازَنَ العِلْمُ الجبالَ ولم يكُنْ ... لَهُ حُسْنُ خُلْقٍ لم يَزِنْ وَزْنَ مِثْقالِ
وإنَّ المساوى ، وهْيَ فى خُلْقِ عالِمٍ ... لأقْبَحُ منها وهى فى خُلْقِ جُهَّالِ

وهكذا إن اقترن العلم بالأخلاق نهضت البلاد وعم الخير :

إذا ما العِلْمُ لا بَسَ حُسنَ خُلْقٍ ... فَرَجِّ لِأَهْلِهِ خَيْرًا كثيرًا
وما إن فازَ أكثرُنا عُلُوماً ... ولـكن فازَ أسْلَمُنا ضميرًا

ثم يأخذ الرصافى فى إطراء مهنة التدريس ويظهر إجلالاً للمعلم ، ثم يدعو إلى التخصص فى العلم ، ويحض المتعلم على تطلب ما تميل إليه نفسه وتشتهيه من فروع العلم ونواحيه. وهكذا كان الرصافى من دعاة العلم كما كان شاعر الأخلاق وشاعرَ البؤسِ والشقاء، يدعو إلى تخفيف عبء البشرية البائسة فى رحمة وحنان عجيبين .

وقد عالج الرصافى فى حكمته أيضاً موضوع السياسة الشرقية عامة والمحلية خاصة ، فثار على طغيان عبد الحميد ، وثار على الاستعمار ، وثار على كل شذوذ فى سياسة البلاد الداخلية ، وله فى كل ذلك قصائد مشهورة مثل « تنبيه النيام » و « رقية الصريع »، و « نحن فى بغداد » ، و« إيقاظ الرقود »، وغيرها .

ومن جميل قوله فى ثورته على عبد الحميد :

عَجِبْتُ لِقومٍ يخضعونَ لدولةٍ ... يسوسُهُمُ بالموبقاتِ عميدُها
وأعجبُ من ذا أنّهم يرهبونها ... وأموالُها مِنْهُمْ ومِنْهُمْ جُنُودُهَا

ومن جميل قوله فى قصيدة خص بها طرابلس الغرب :

ومن مُبكياتِ الدهرِ أو مضحكاتهِ ... لدَى الناسِ حُرٌ لم يكُنْ خَصْمُهُ حُرًّا

ومن قوله فى ثورته على المعاهدة العراقية — الإنكليزية :

والعهدُ بين الإنكليز وبَيْنَنا ... كالعَهدِ بين الشَّاةِ والرِّئْبالِ

* * *

متى شَفِقَ القويُّ على ضَعيفٍ ... وكيفَ يُعاهِدُ الخِرْفانَ سِيدُ

ولكِنْ نحنُ فى يَدِهِم أسارَى ... وما كَتَبُوهُ من عَهْدٍ قُيُودُ

تلك بعض آراء الرصافى . وهى ، كما لا يخفى ، مما يعبر عن آلام الأمة وآمالها ومما سار على ألسنة الناس ، ومما ردده القاصى والدانى من أبناء هذه البلاد التى تعانى من أسباب الضغط ما تعانى ، والتى تحاول فى همة جبارة أن تنفض عنها نير الطغيان والاستعباد .

* * *

وهنالك جبران خليل جبران ، وله ديوان شعرى أسماه « المواكب » وضمنه نظرات فى الأيام والناس « وقد جعلها محاورة بين شخصين : الأول شيخ خبر الدهر وذاق حلوه ومره ، والثانى شاب فى عنفوان قوته يعيش فى الغاب بعيداً عن الناس ومفاسدهم . فيتحدث الشيخ عن الحياة وما فيها من ألم وتغرض وظلم وجهل وعبودية وتمويه وشهرة كاذبة وما إلى ذلك ، ويرد عليه الثانى نافياً وجود ذلك فى الغاب متعالياً فى غنائه عن الآلام والأوصاب . » هذا موضوع الكتاب : جدال فلسفى بين الشيخ والفتى يظهر فيه تمرد جبران خليل جبران على وضع المجتمع ، ونزوعه إلى حل ما فى شواعر الحياة وعواطفها من مسائل الحسنات والسيئات . وبعد أن يشبع جبران من تحليلها بلسان الشيخ يتمرد عليها بلسان الفتى ، فتى

الغاب الذى يتنكر لكل ما فى الحياة من تعقد وتصنع . فهو ينكر العدل إلا عدل الغاب ، وينبذ الشريعة إلا شريعة الغاب ، ويأبى الحب إلا الحب المطلق فى الغاب . « وكأنى بجبران يرمى فى مواكبه إلى تأليه الغاب . ويا له من تأليه شبيه بحبور صرف ، وطمأنينة صافية تشعر بها النفس المستريحة الملتجئة إلى الغاب بعد هربها من ضوضاء المدينة وسخافاتها . فالغاب عنده كتاب مقدس كلماته تعاويذ تشفى من لذعات فلسفة الحياة . ويخيل لى أن جبران يعشق عشقاً مبرحاً كل معانى جمال الغاب التى تفوق فلسفة الناس لعظمتها وبساطتها . فهو يحب ظلال الحور ، ويهوى خوار الثيران ، وصفير البلبل ، وأرجوحة النسيم ، وخرير الماء ، وكل ما فى الغاب من حركة وصورة . . . وهو يضيف إلى كلامه نغمات الناى المتصاعدة كأنشودة البقاء . وكأنى به يتصور أن فى نايه صوراً ينفخ مستنكراً الشواعر المضللة والعادات الواهية وحكمة الاجتماع . فالحياة عنده لولا الناى والغاب جزيرة قاحلة مقفرة . » والغاب فى نظر الشاعر هو الطبيعة بأسرها ، هو الانفلات من كل قيد ، هو السعة المطلقة ، والحرية الواسعة ؛ هو الرجوع إلى البساطة الكلية ، إلى تلك البساطة المثلى التى يتخيلها الشاعر ويجعل منها عالماً غير العالم الواقعى الحقيقى ، عالماً خيالياً يقوم على ثورة جبرانية . قال جبران :

الخَيْرُ فى النّاسِ مَصْنوعٌ إذا جُبِروا والشَّرُّ فى النَّاسِ لا يفْنى وإن قُبِرُوا

وأَكْثَرُ النَّاسِ آلاتٌ تُحَرِّكُها أصابِعُ الدّهرِ يَوْماً ثُمَّ تنْكَسِرُ

فَلا تَقُولَنَّ هذا عالِمٌ عَلَمٌ ولا تقُولَنَّ ذَاكَ السَّيِّدُ الوَقِرُ

فَأَفْضَلُ الناسِ قُطْعانٌ يَسِيرُ بِها صَوْتُ الرُّعاةِ ومَنْ لمْ يَمْشِ يَنْدَثِرُ

لَيسَ فى الغاباتِ رَاعٍ لا ولا فيها القَطِيعْ

فالشِّتا يمشى ولكن لا يُجارِيهِ الرَّبيعْ

خُلِقَ النّاسُ عبيدًا للذى يأبى الخُضُوعْ
فإذا ما هبَّ يوماً سائرًا سارَ الجَميعْ
أعْطِنى النّايَ وغَنِّ فالغِنا يرعى العُقُولْ
وأنينُ النّاى أبْقَى مِنْ مَجِيدٍ وَذَلِيلْ

وهكذا ينطلق جبران فى مواكبه متخيلاً ، متشائماً ، ثائراً على الناس وتقاليدهم وشرائعهم ، داعياً إلى التحرر والانطلاق .

وهنالك أبو القاسم الشابى الذى يرى أن الناس لا يستشعرون السعادة ولا يتحسسونها إلا باستسلامهم لمشيئة الدنيا ، وامتثالهم لقضائها وأحكامها ، وتجنبهم الملل والتبرم منها ، إذ ليس فى الدنيا من تألم فرحم ، أو تجلد فرجم . وهذه هى سعادة الناس التى لا يدرك كنهها ويتذوق ثمارها إلا رجل يريد أن تبتسم له الدنيا وتواتيه حظوظها ، فيماشيها كما تريد ، ويستسلم لما تحويه الليالى وتأتى به الأيام .

ويرى الشابى أن السعادة فى حياة الناس شىء جميل طمحوا إليه فهبوا يجدون فى سبيله ، ولكنه ناء بعيد ، لا يدركونه بحال ، والسعيد من عاش كما شاءت الحياة[1] . والشابى — شأن جبران — لا يعرف للسعادة وجهاً إلا فى حياة الغاب

وإنْ أردْتَ قضاءَ العيشِ فى دَعةٍ شعريّةٍ لا يُغَشِّى صَفْوَها نَدَمُ
فاتْرُكْ إلى الناس دُنْياهُمْ وضَجّتَهُمْ وما بَنَوْا لنظامِ العيشِ أو رسَمُوا
واجْعَلْ حياتك دَوْحاً مُزْهِرًا نضِرًا فى عزلة الغابِ ينمو ثم يَنْعَدِمُ
واجْعل لياليك أحلاماً مُغَرِّدَةً إنّ الحياةَ وما تدوى بهِ حُلُمُ

(١) أبو القاسم محمد كرو : الشابى ص ٥٤ — ٥٨

وللشابي قصائد مختلفة عرض فيها آراءه فى الحياة والوجود، من مثل « إرادة الحياة » ، و« إلى طغاة العالم » ، و « فكرة الفنان » وغيرها . وخلاصة فكرته أن الحياة طموح وأن النصر حليف الطامحين والمكافحين ، وأن الحياة جميلة يجب على الإنسان أن يتمتع بجمالها :

إذا الشّعبُ يوماً أرادَ الحياةَ فلا بُدَّ أن يَستجيب القَدَرْ
هو الكونُ حيٌّ يحبُّ الحياةَ ويحتقرُ الميّتَ المندَثرْ
إذا طمحت للحياة النفوسُ فلا بُدَّ أن يستجيبَ القَدَرْ

وهكذا كان الشابي من دعاة الطموح، على ما فى آرائه من حيرة ، وهكذا كان الشاعر الشاب الذى أصبحت أقواله أناشيد تدوى أصداؤها فى العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه .

وهنالك شعراء آخرون كثيرون من مثل فوزى المعلوف ، وإيليا أبي ماضى وغيرهما ، وقد عالجوا قضايا الوجود والاجتماع فى شعر جرى مجرى الأمثال، ونزع نزعة التأمل أو الاستدارات القصصية التأملية، وكان خاتمة المطاف فى الشعر العربي التعليمى أو الحكمى من غير أن يكون الذروة التى يمكن الوصول إليها . وهكذا سارت الأمثال والحكم عند العرب ، منذ الجاهلية إلى اليوم ، سيراً قادته البيئة والثقافة والوعى الاجتماعى والقومى ، وهكذا كانت الفلسفة الأدبية والأدب الفلسفى .

مراجع

ابن عبد ربه : العقد الفريد — بيروت ١٩٥١

الميدانى : مجمع الأمثال

أبو هلال العسكرى : جمهرة الأمثال

ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة — بيروت

شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى النثر العربى — القاهرة ١٩٤٦

أحمد أمين : فجر الإسلام — القاهرة ١٩٤٥

قصة الأدب فى العالم — القاهرة ١٩٤٥

زهدى يكن : أمثال المتنبي — بيروت ١٩٥٠

عبد اللطيف حمزة : ابن المقفع — القاهرة ١٩٤١

عمر الدسوقى : فى الأدب الحديث — القاهرة

أبو القاسم محمد كرو : الشابى — بيروت ١٩٥٢

حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربى — حريصا ١٩٥١

محاضرات معهد الدراسات العربية العالية — القاهرة ١٩٥٤

Encyclopédie de l'Islam

فهرست

مجمـــوعة

فنون الأدب العربى

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربى ألواناً من الفنون الأدبية التى عالجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره . فهى تقف أمام كل فن أدبى فتعالجه فى جزء أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته العربية فى تاريخها الطويل . .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى . . . ولكنها تعالج الأدب العربى على مدى ما اتسع فيه من فنون . . . فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع . . . وهكذا ستكبر هذه المجموعة على قدر ما فى الأدب العربى من فنون .

برنامج المجموعة

● فى الفن الغنائى :

الغزل ، الرثاء ، الوصف ، المديح ، الفخر والحماسة ، الهجاء ، الزهد والتصوف ، الموشحات والأزجال .

● فى الفن القصصى :

المقامة ، التراجم والسير ، الترجمة الشخصية ، الرحلات ، الملحمة ، القصة ، الحكاية والأقصوصة .

● فى الفن التمثيلى :

المسرح ، الفاجعة والمأساة ، الملهاة .

● فى الفن التعليمى :

النقد ، الخطب والمواعظ ، الحكم والأمثال ، منظومات الشعر .